دكتور منصور محمد حسب النبى

العلم الحديث
الطريق إلى الله

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف





سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٧١]

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

أ. د. منصور محمد حسب النبى

العلم الحديث
الطريق إلى الله



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

مُقَدِّمَة

لقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً للشك وحدانية النظام في الكون وذلك من خلال التعرف على الكون، ومن خلال التشابه والتماثل فى الكائنات الحية، ولم يكن العلم قاصدًا لتلك النتيجة، ولكن الحقائق العلمية أثبتت أن فطرة الكون على اختلاف مظاهرها إنما هى فطرة واحدة متماسكة ومتكاملة.

ويسأل المتأمل عن القوة التى تعتنى وتهدى وتبدع وتدير هذا الكون بكل دقة وجمال وبدون خلل أو تناقض.

ويتجلى أمام المسلم كون متكامل فى عالم النبات وفى عالم الأحياء وفى عالم الفضاء فتتوارد على مخيلته القوة العظمى القادرة والهادفة والتى على ضوء إرادتها تتحرك القوانين والنظم التى تحرك وتوجه كل هذه المخلوقات. وإذا كان العلم يصاحبه الآن فى المجتمعات الغربية نظرة مادية بحتة وغرور جامح بإمكانيات الإنسان وإهمال للنواحي الروحية بل وكفر بها وإلحاد فإننا نحن – المسلمين – نعرف أن العلم اليقينى هو الطريق إلى الله.

ولنتدبر معًا قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

(آل عمران: ١٩١).

والآية الأولى هنا تشير إلى المرحلة العلمية بالاستدلال الاستقرائى لمعرفة الكون وقوانينه، وقد يقف بعض الناظرين عند هذه المرحلة العلمية فقط دون الانتقال للآية الثانية التى تشير إلى الاستدلال القياسى لمعرفة الله عن طريق هذا العلم، وهؤلاء للأسف وصلوا فقط إلى منتصف الطريق، وفاتهم الهدف البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين عن الحقيقة ومسجونين فى محيط الكون دون أن تتفتح لهم ميادين الغيب، ومحصورين فى دائرة المادة ولا يستطيعون الخروج منها إلى ما وراء الطبيعة، فآثروا النفع العاجل على النفع الآجل، وشُغِلوا بالوسائل عن الغايات. . . هؤلاء هم علماء الإلحاد المادى المعاصر الذين يصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(الروم: ٧).

ولا شك أنه لا غنى عن المرحلة الأولى وهى العلم المعتمد على التجربة والقياس ولكن المهم أن يصل العلماء إلى المرحلة الثانية وهى الإيمان ليحققوا إنسانيتهم وليجعلوا لحياتهم معنى فهم المتفرجون على مسرح الكون والمتدبرون المتأملون بعلمهم ليتعرفوا على خالقهم الذى أبدع هذا الكون. . . فنهاية العلم اليقينى هى حتمًا الإيمان بالله وصدق تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨).

وسوف نستعرض فى هذا الكتاب بأسلوب علمى ظواهر العناية والهداية والجمال والإبداع والإرادة والحكمة الإلهية جعلها الله تعالى آيات لنا لنستدل بها على عظمته وقدرته ويزداد إحساسنا بهذه الظواهر كلما تعمقنا فى بحور العلم فنعرف الله حق المعرفة وحق اليقين وبذلك يصبح العلم الحديث طريقنا إلى الله.

المؤلف



الفصل الأول

ظاهرة العناية الإلهية

كل نعمة وراءها منعم، فوصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب، وتأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم، ورعاية الطفل حتى يكبر ويستغنى نعمة وراءها أب وأم، ووجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا وشيَّدوا وناس أنفقوا وخططوا، وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى.

ونتساءل: أترى هذه المعطيات الكثيرة فى الكون والتى ليست من صنع الإنسان للإنسان، أليس وراءها يد؟ والجواب على ذلك: بلى! وإلا كان الكلام تعطيلا للعقل(*).

هذا الإنسان الصغير هو أكمل مخلوقات هذا الكون، ودراسة كاملة لهذا الكون تدلنا على أنه: - سماواته، وأرضه، وحيواناته، ونباتاته، - كله مسخر للإنسان لا يشذ عن هذا ذرة من ذراته.

فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر، ثمرها لغذائه، وساقها لبناء مسكنه ولأثاث بيته، وزهرها للنحل الذى يأكل منه الإنسان العسل، وقد تكون غذاء للشاة

(*) الله جل جلاله، للأستاذ سعيد حوى. دار السلام للطباعة والنشر.

التى يأكل لحمها، ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات، ولا ننسى أن البترول منـها، كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يس: ٨٠).

وهذه الأحياء - ما علمنا منها وما لم نعلم - أليست كلها للإنسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر: ركوبا، وطعاما، ومتعة نظر، وقد نرى أصنافًا من الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الإنسان وكيف يستفيد، وقد يُعرف فى المستقبل.

ولعل فى قصة اكتشاف البنسلين من عفن الخبز وفى وجوده عبرة أخرىٰ، على أن كل شىء فى هذا الكون يستفيد الإنسان منه بشكل أو بآخر الآن أو غدًا، وعلى كل فإن الإنسان كما يتمتع باللقمة التى يأكلها والثوب الذى يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل، وكما يتمتع بالمنظر الجميل، يتمتع بلذة المعرفة، ولئن لم يكن فى بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته، إيجادًا وإمدادًا، خلقًا وتسخيرًا، إحياء وإماتة ورزقًا؛ لكفى.

ثم أليست عناصر هذا الكون: حديده، ونحاسه، وأكسجينه، وآزوته، وهيدروجينه، وذهبه، كلها مسخرة للإنسان؟! ثم الأرض

بساطه ومأواه ومحل معاشه وقراره؟! وفى القمر للإنسان جذبه ونوره وجماله، ومعرفتنا الوقت به كعدد للشهور والسنين؟! وفى الشمس للإنسان جذبها وحرارتها ونورها وطاقتها التى تبثها دون أن تنضب؟! وفى النجوم الهداية الجميلة؟! والمياه ودورتها؟! والريح ودورتها؟! ثم كون هذا الإنسان على ما هو عليه من علم وإرادة وقدرة وحكمة وعقل بحيث عرف كل شيء، وعرف كيف يستفيد من الأشياء، أليس فى هذا كله الدليل الكامل على أن هذا الكون خلق مسخر للإنسان، وأن الإنسان خُلق مسخرًا لهذا الكون؟! أو ليس فى هذا الدليل الكامل على أن هناك ذاتًا رتبت هذا الكون للإنسان وأوجدت الإنسان له. ذلك الله رب العالمين.

وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه فى آيات منها:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ﴾ (التين: ٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣).

وفى هذا الإجمال السريع يتبين:

(أ) أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان، خلقته فى أحسن تقويم على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة.

(ب) وثانى هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسموات بما فيها مسخرة للإنسان وهذا هو ما يعرف حديثا بالمبدأ الإنساني.

إن هذا الإنعام على الإنسان من الله عز وجل كما فى التعبير القرآنى «جميعا منه» يدل على مناسبة الكون وتسخيره للإنسان، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بُمسَخِّر.

وبعد هذا الإجمال، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الإنسان فى القرآن :

أ - خلق الإنسان فى أحسن تقويم :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرحمن: ١ - ٤).

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (التين: ٤).

ويقول الرسول ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» أى على صفاته سبحانه وتعالى على رأى بعضهم، فالله له إرادة وللإنسان

إرادة، والله له علم وللإنسان صفة علم، والله حي وللإنسان صفة حياة، والله سميع وللإنسان صفة سمع، والله بصير وللإنسان صفة بصر، والله متكلم وللإنسان صفة كلام، والله حليم وللإنسان صفة حلم، والله رحيم وللإنسان صفة رحمه و. . . . . . مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء؛ وجودا وصفات وأسماء وأفعالاً .

فلم ينعم على مخلوق من المخلوقات كما أنعم على الإنسان من حيث ما أعطى من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠). وكفى بالعقل للإنسان نعمة استطاع بسببها أن يسخر هذا الكون بما فيه لنفسه.

ب - تسخير الكون للإنسان:

ثم يعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الإنسان، وما أكثر الآيات في ذلك! ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة «هي سورة الأنعام» كلها تقريبًا تتحدث عن هذا الموضوع، وكذلك سورة النمل، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس: ٥). ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: ٩٧).

إن الطريق الوحيد للإنسان كى يتعرف على الطريق الصحيح فى ظلمات البر والبحر هو النجم، وقد كانت المسألة قديمًا أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم، ولكن فى الحاضر وإلى الأبد سيبقى اهتداء الإنسان بالنجم شيئا أساسيًا، يهتدى بها قاطع الصحراء فى سيره، والجندى فى معركته هجومًا أو انسحابًا، والإنسان حيث كان. . إن السفينة فى البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض وهى - حتى فى هذه - معتمدة على النجوم؛ إذ لولا نجم القطب ما عرف طول ولا عرض، ولولا النجوم الأخرى(*) ما عرف نجم القطب.

وفى هذا السياق نستعرض ما يلى من آيات قرآنية فى قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾(إبراهيم: ٣٢ - ٣٤)

(*) راجع عدد النجوم شموس الكون فى سلسلة المعارف الكونية للمؤلف، دار الفكر العربى.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الأنبياء: ٣٠ – ٣٣).

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (النحل: ٧٢).

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (النحل: ٧٨ – ٨٣).

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (النبأ: ٦ – ١٦).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (عبس: ٢٤ – ٣٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

(فاطر: ٣).

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ (فاطر: ٩).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر: ٢٧ – ٢٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٤١ — ١٤٣)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٥ — ٩٦).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٨).

ونختتم هذه الآيات بما ختمت به سورة الأنعام :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

وفى هذه الآية نرى إجمالا لنعم الله كلها:

١ - كون الإنسان خليفة على هذه الأرض، وفى هذا إشارة لنوعى النعم: نعمة الله على الإنسان فى إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التى استأهل بها تسخير الوجود، ونعمة الله على الإنسان إذ جعل الأرض بما فيها له.

٢ - وكون الناس ليسوا سواء؛ بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم. وقد لا يدرك بعض الناس حكمة جعل الناس بعضهم فوق بعض بمثابة التفاضل نعمة، وهذا من قصور الفهم؛ وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالا وذكاء وقوة وعقلاً وعلمًا وإمكانات، وكانوا كلهم فى الدرجة العليا من ذلك فإنه وقتذاك، لا يوجد كناس ينظف أرضا ولا عامل يقيم عملاً، ولكن وجودهم متفاوتين جعل كلا مسخرًا - فى حدود طاقاته - إلى جزء من العمل الذى تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق، وبهذا التفاوت صلح ناس للإمرة، وآخرون للشورى، وآخرون للجيش، وهكذا.

فهذه حكمة الله سبحانه فالكل مسخر لتسير عجلة الحياة كما فى قوله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الزخرف: ٣٢).

ثم بينت الآية (١٦٥ في سورة الأنعام) الحكمة في وجود هذا التفاوت بين المستخلفين؛ وهو الابتلاء فيما أوتى كل إنسان من مقام ومواهب وإمكانات؛ فمن استعمل هذه في طريقها الصحيح نجح وإلا فقد سقط، وقد يسقط إنسان أوتى من المكانة أعلاها، وينجح إنسان أوتى من المكانة أدناها، ومن هنا ندرك أن أكبر نعمة أنعمها الله على الإنسان هى إرسال الرسل له ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقوله تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ (آل عمران: ١٦٤)

فالرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان إلى الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يستعمل فيه ملكاته كلها، بحيث لا يعطل شيئا منها، وبحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملكات، وبالتالى تتم نعمة الله على الإنسان بالاستفادة من كل ما سخر له، ولولا هذا لتضاربت محاولات الناس من أجل الاستفادة مما سخر الله لهم واصطدموا، وأصبح هذا الفضل على الإنسان بتسخير كل شىء له سببًا فى شقاء الإنسان ونزاعه كما هو

واقع الآن حيث تدفع البشرية ثمن التقدم فى العلم والتكنولوجيا كما فى قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الروم: ٤١).

ولما كانت هذه الظاهرة – ظاهرة العناية والنعمة الإلهية على الإنسان – من أكثر الظواهر تفصيلا فى القرآن، لما يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه، وبالتالى وجوب شكر العاقل لله العظيم، أو إقامة الحجة على الإنسان الكافر لظلمه وجحوده، وبالتالى استحقاقه للعقاب؛ فلذلك نعرض فيما يلى بعض آيات القرآن لظاهرة النعمة على الإنسان، والعناية به وكون ذلك دليلا على الله.

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(النحل: ١٨).

ويقول:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(إبراهيم: ٣٤).

والملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بـ «إن الله لغفور رحيم» بينما الأخرى ختمت بوصف الإنسان «إن الإنسان لظلوم كفار» فوضح من سياق الآيتين وختامهما معان:

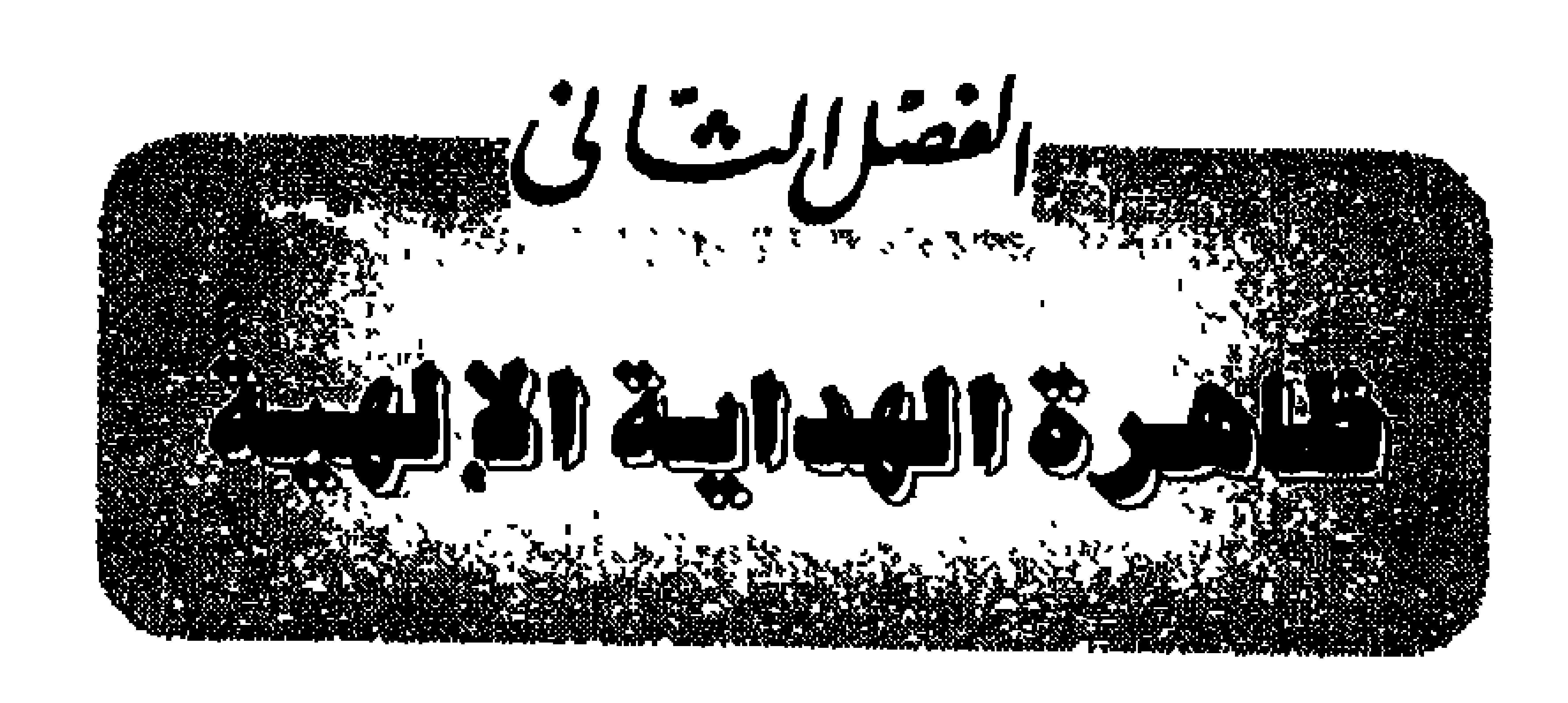
(أ) أن هذه النعم التى لا تعد ليست مصادفة بل هى من خلق الله، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن، إذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قيامًا كاملاً.

(ب) أن جهل الإنسان الذى ينتج عنه الكفر، وكبره الذى ينتج عنه الظلم، هو الذى يجعل الإنسان لا يرى بداهة نعم الله، ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد، بل ينسبها إلى أى شىء، مهما كان تافها وباطلا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الزمر: ٤٥).

فهل نحن عزيزى القارئ من الشاكرين؟! يقول تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ (إبراهيم ٧ – ٨).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).


الفصل الثانى
ظاهرة الهداية الإلهية

عندما نتأمل الكون نجـد فيـه هدايـة إلهيـة كاملـة مـن الـذرة إلى المجرة ومن خلية الأميبا إلى خلايا كل حيـوان أو نبـات أو إنسـان، ومن أبسط أشكال الكون إلى أعقد مظاهره ومن أبسط عناصره إلى أعقـد مكوناته المادية، ومن الطاقة ما ظهر منها وما بطن، ومن النور المرئى وغير المرئى، ولن نستطيع حصر مظاهر الهداية فى كل شـىء والتـى أعطاها الله لمخلوقاته فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ (طه : ٥٠).

تلك كلمة القرآن وهى كذلك كلمة العقل وهـى كذلـك كلمـة العلـم وعلى سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

وسوف أبدأ أولا بضعاف المخلوقات لنورد بعضها مثـلا علـى هـذا الإلهام الربانى وهذه العناية والهداية الإلهية.

ولنبدأ بهذه الحشرة التى تدب على الأرض. معرضة للسـحق مـن دواب الأرض دون عمد أو عن قصد، ألا وهى «النملـة»، التـى يقـرر العلم أنها وجدت على هذه الأرض قبل الإنسان بعشرات الملايين من السنين، ولها نظم اجتماعية رائعـة. فـهناك ملكـة علـى رأس هـذا المجتمع، وعدد محدود من الذكور تقوم بعملية التناسل. وباقى أفراد

القرية أو قل الملكة، تقوم بالأعمال المختلفة، فمنها ما يسعى لجمع القوت، ومنها ما يقوم بعمل الممرات وتشييد الأنفاق، وأخرى تعد المخازن الواسعة لاستقبال المحصول، أو تقوم ببناء غرف فوقها غرف، كما نشاهد في العمارات الحديثة!. والأغرب من هذا أن هناك تخصصًا، فلكل فئة أعمالها التي تجيدها، حتى الحراسات لها فرق.

والتفاهم بين أفراد النمل واضح، فما أن تعجز نملة عن عمل ما، كنقل حبة لا تقوى على حملها، أو قطعة غذاء لا تستطيع جرها، إلا وتركت المحاولة لتبحث عمن يعينها من أخواتها، وما تمضي لحظات حتى تكون تلك الحبة في طريقها إلى مخازن القرية بين نملتين أو أكثر.

وأفراد القرية يعرف بعضهم بعضا، فخذ نملة من قرية ما، واطرحها بين أفراد قرية أخرى تلاحظ أنها تشعر بالوحشة والخوف فورًا، وأن النمل يدرك حالا أنها غريبة، فيمسك بها، وقد يجرها لداخل القرية، أو يتركها وشأنها، إذا أظهرت خضوعا وذلة، تمامًا كما تفعل الحيوانات الأخرى عند اقتتالها. لكن النمل من أكثر المخلوقات عدوانية ولذا، يندر أن تسلم نملة إن أوقعها سوء حظها بين جماعة غريبة، أما إن كانت تحمل شيئا، فالاستيلاء عليه أمر مؤكد.

ولإتمام برهان معرفة النمل لأفراد قريته، خذ نملة من نفس القرية وضعها وسط مجموعة من قريتها، بعيدة عن القرية، أثناء سعيها لجمع قوتها، تلاحظ تحرك المجموعة السريع نحو هذه التى سقطت بينها، وسرعان ما ترى قرون الاستشعار تتلاوح بين الجميع، وينتهى ذلك بمعاودة الكل للسعى، وانضمام تلك النملة للقافلة. بل ربما بدأت فى مساعدة نملة منها عجزت عن حمل أو جر حبة أو عود.

والأعمال التى تعود على العقل لدى النمل واضحة، فكم من مرة شاهدناه ينشر الحبوب التى خزنها، ليعرضها لحرارة الشمس بسبب رطوبة أصابتها وخشى فسادها، فإذا جفت وأصلح مخازنها أعادها ثانية. والعجيب أنه إذا حدث تغير فى الطقس وبدأت السحب تتجمع فإنه يعدل حالاً عن مواصلة نشر حبوبه، ويبدأ فى إدخالها بسرعة إلى مخازنها. ويندر أن يخطئ فى تنبؤه هذا، حتى إن العامة من كثرة تجربتهم وعهدهم به، يقولون: إذا بدأ النمل ينشر حبوبه، نسافر ولا نخشى المطر. كما أنه يعتنى بصغاره. فينقلها من مكان إلى مكان إذا نزل بها ما يوجب نقلها، مما يشير إلى اهتمامه الاجتماعى وعنايته بضعافه.

والنمل من شدة توقعه للعدوان عليه (لأنه ذو طبيعة عدوانية)، لا يخرج إلا فى مسيرة طويلة تبلغ مئات الأمتار، وتراه فيها على

شطرين، شطر محمَّل ومتجه نحو القرية، وشطر أودع حمله المخازن وعاد ليحمل من جديد، كما نلاحظ أن بعضه يبحث عن الحبوب على جانبى المسيرة، كأنه يريد أن يسعى فى ظل حمايتها، وإذا اكتشف ما يوجب تشكيل أفرع من المسيرة، رأيتها قد تفرعت، ولكنها غالبًا ما تصب فى المسيرة الأساسية.

وطبيعى أن هذا التشكيل للقرية بهذا النظام الذى وزعت به الأعمال بالتخصص وهذا التمييز للغرباء من الأقرباء، مما شكل معه وحدة تحمى مجتمعه، وتجمع غذاءه؛ لبرهان قاطع بأن هناك لغة ما يتفاهم بها. وإلا لما قام هذا المجتمع المتكامل. وقد تكون لغة صوتية، لا حركية بقرنى الاستشعار وحسب، لأنك لو أمسكت بنملة، أو حبست إحداها فى مكان ما، كطيات الثياب، فإنك تسمع صوتا فيه شيء من اللحن أو المقاطع الصوتية، كالصياح الذى تسمعه من العصافير وغيرها.

والأغرب من كل ما قلنا، عن النمل، أنه من الذكاء بحيث استطاع أن يستأنس حشرة تدعى «المن» تقيم فى قريته، ويحلبها ليتغذى بذلك السائل الحلو اللذيذ الطعم. ويقول العلماء: إنه توصل لاستئناسها قبل أن يستأنس أى حيوان أو طير!

أما عدوانية النمل*، وجرأته، فتختلف من فصيلة إلى فصيلة، فمنها ما تلاحظ فيها ميلاً للسلم ومنها ما تجد فيها كل عوامل الشر

---

* الإسلام يقينا لا تلقينًا أ. د. صابر طعيمة، دار الجيل بيروت، ١٩٧٩

والعدوان، حتى إن بعضها لشدة عدوانيته وجرأته المتناهية، يفتح فاه ويرفع جسمه بصلف كله التحدى والتوثب، وهذا النوع من النمل يغزو القرى الأخرى ويستولى على مخازنها، تمامًا كما يفعل الأشرار من البشر.

ألست معى بعد هذا الوصف الذى هو حصيلة دراسة علماء متخصصين وتجارب طويلة لهم مع النمل. بأن ما جاء فى القرآن الكريم، من إضفاء لهذه الصفات عليه هو تطابق مدهش للعلم مع القرآن الكريم الذى يقول الله تبارك وتعالى فيه :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (النمل: ١٨).

ولا عجب فقد صنع الإنسان أجهزة إرسال تكون من الصغر بحيث تغرس بين أسنان الشخص دون علمه لتنقل همساته لمكان بعيد دون أن يدرى! ! فكيف بخالق الإنسان؟ أتعجزه الوسيلة ليلهم النمل؟!.

ومن يدرى، فلعل العلم يتمكن عما قريب من تحديد المقاطع الصوتية لهذه الحشرة وتكبيرها بحيث تسمع بوضوح يتيح للعلماء تحليلها ومراقبة النمل فى تجاوبه وتفاعله مع بعضه البعض بواسطتها وأثر ذلك فى حياته التى تؤكد أن له أسلوبًا ما للتفاهم

أدى إلى إقامة مجتمع منظم يقيم فى مساكن تماثل مساكن البشر فى دقتها، فهى طبقة تعلوها طبقة، ويدير حياته بنظام بديع.

قال الإمام على كرم الله وجهه فى وصف النملة من كتاب «نهج البلاغة»: «انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها وصبرت على رزقها تنقل الحب إلى جحرها، وتعده فى مستقرها، تجمع فى حرها لبردها وفى ورودها لصدورها، مكفولة برزقها لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان، ولو فكرت فى مجارى أكلها، فى علوها وسفلها، وما فى الجوف من شراسيف بطنها، وما فى الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجبا ولقيت من وصفها تعبا. . . فتعالى الذى أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه فى فطرتها فاطر ولم يعنه فى خلقها قادر».

ومثل آخر على الحشر الضئيل النحيل الذى لا يكاد يشعر به أحد، وهو يمثل آيات الإلهام والإبداع التى خصه الله بها. فظهرت فى أعماله الدقيقة وقدراته الخارقة، ألا وهى حشرة النحل، التى تعتبر من كرام الحشر، والتى تتجمع فى وحدات تسمى الخلايا، ويقوم مجتمعها على النظام الدقيق، والتخصص فى الأعمال المتنوعة؛ ملكة ولود وذكور للتناسل، وعمال تبنى الخلايا ذات الهندسة الرائعة، والمكونة من ثقوب سداسية الشكل منتظمة التوزيع، وهى

من مادة شمعية جمعت من البساتين والحقول، لتقوم الفئات الأخرى بجمع الرحيق من مختلف الأزهار، وتحويله عسلا تخزنه فيها، كما تحول الثدييات عناصر الغذاء الذى فى جسمها إلى لبن.

ويمتاز النحل بحاسة الشم القوية جدا، فهو يعرف البساتين المزهرة، على بعد خمسة أميال من خليته، ويجمع الرحيق من أزهارها، زهرة زهرة وبالرغم من كثافة الأشجار التى قد يضل فيها بعض الناس طريقه، فإنه لا يضل طريقه إلى خليته.

ونظام النحل عجيب، فإنك تشاهد الأسراب غادية رائحة بين الأزهار والخلايا، فلا يخطئ سرب أو نحلة خليته ليدخل خلية مجاورة، ولا يُعِيق الداخل الخارج، وليس هناك إلا الدوى الذى يدل على الجد والمثابرة والنشاط، وكل فئة تعرف واجبها حتى الحراس على أبواب الخلايا لا تحيد عن حراستها.

ومن القدرات الخارقة علاوة على ما ذكر فإن للنحل القدرة على تحضير غذاء خاص للملكة، لا يتناوله أحد سواها، إلا خطأ أو عن غفلة، وهذا الغذاء، احتار علماء البشر فيه، فهو سائل لبنى كالعسل، تتناوله الملكة فيهبها القدرة على وضع بيض يعادل وزن جسمها مرات ومرات، ويطيل فى عمرها لسبع سنوات أو أكثر. والغريب من أمر هذا الغذاء، أن الشيخ المتهاوى، لو أعطى منه

جرعات يومية بمقدار رأس عود الثقاب، لعاوده نشاطه وعادت إليه نضارة الشباب، وهذا السائل أثمن من الذهب وزنًا ومع ذلك عجز علماؤنا عن تصنيع ما يشابهه، وبالرغم من تقدم العلم، فإن النحل بكل بساطة يمكنه ذلك، ولولا أن تناوله يغير نمو جسمه، بحيث يخرجه عن التناسب مع أعماله. ليهيئ لنفسه ما يكفيه من هذا الغذاء، لكن وراء ذلك مشيئة كبرى رسمت الحدود، وألزمت كلاً بحده، فلايحيد عنه قصورًا ولا تجاوزًا، وإن كان القرآن الكريم قد قرر أن للنمل مساكن، ومجتمعًا ينادى فيه: يسمع صوت النذير، ويستجاب له بدخول المساكن، فإن الله سبحانه وتعالى لعلمه ما للنحل من ميزات فقد كرمه بالوحي إليه ولا يوحى إلا إلى من كان جديرًا بذلك. إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (النحل: ٦٨ – ٦٩).

قلنا إن للنمل صفات تدل على العقل، وأنه يسعى لجمع قوته، ويعود لقريته، لكن سعيه وعودته لقريته يكاد يكون على طريق

رسمته الجماعة بأجسامها دائمة الوجود عليه، وللرائحة الخاصة التى تتخلف منها مما لا تضل معها الطريق.

لكن النحلة التى تطير منفردة ولخمسة أميال عن خليتها، وتغرق وسط أشجار متشابكة، قد تبلغ عدة كيلومترات مربعة، وتمضى بعض الوقت هائمة بين أزهارها، حيث تتركها عند استيفاء حملها دون انتظار لغيرها، وتطير إلى خليتها فلا تضل الطريق مع كثرة الأشجار والبنيان أحيانًا، ولا تزل عن خليتها مع تشابك الخلايا فى مزارع النحل!!

فهل يصدر هذا عن عفوية عشوائية؟ أم عن عقل قادر على أن يدل بصاحبه كأحسن ما تدل به العقول؟ وإن كان ضمن دائرة رسمها له وهَاب العقول ومقدّرها سبحانه وتعالى مالك الملك وخالق الكون.

إن هذه الحشرة ذات العقل الذى تنطق به آمالها وقدراتها، ونظافة مرعاها بل امتيازه عن المراعى الأخرى، وهذا الجنى الكريم الذى تجنيه وهذا النظام والانضباط والمثابرة والسعى الدؤوب، ليجعلها أهلاً لأن يكرمها الله بالوحى الملهم، لتأخذ هذه المكانة الرفيعة بين الحشر.

ويقول الدكتور صابر طعيمة فى كتابه(*):

(*) الإسلام يقينًا لا تلقينًا، دار الجيل بيروت.

«وإذا أردنا الاسترسال فى ذكر مجتمعات مخلوقاته، وشرح ما تقوم به من أعمال، فإننا سنخرج عن الهدف الذى نسعى لبيانه، ويصبح الغرض متعلقاً بهذه المخلوقات من أجل همنا أن نشير للقارئ الكريم إلى عظمة وقدرة الخالق العظيم التى يرمز لها جليل أعمال مخلوقاته المتطايرة كالرذاذ، أو المبعثرة تحمل الحب وهى أصغر من الحب، ليتضح لنا أن هذه الأجسام اللطيفة الضئيلة، لا يمكن أن يتسنى لها مثل هذه الأعمال وهذه القدرات المليئة بالإبداع لو لم يكن البديع العليم قد أودع فيها ذلك، وزودها به مما يلفت النظر إلى أن المسألة عطاء قدرات محددة من صاحب القدرة الغلابة، التى لا تحد ولا يحاط بها، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما قامت النحلة والنملة بهذه الأعمال، ولما شكلت مجتمعاتها القائمة على التعاون، والنظام الدقيق ».

وما قلناه عن النمل والنحل، يمكن اعتباره مثلاً على بقية الحيوانات، وإن كان هناك ماهو أدنى منها سلوكاً، وما هو أعلى. كل حسب رتبته الحيوانية، وكل رتبة أمة من الأمم تماما مثل البشر، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

ويقول أ. د. «كريس موريسون» الرئيس السابق لأكاديمية العلوم الأمريكية فى كتابه: «العلم يدعو للإيمان».

١ – النحل والنمل يبدو أنها تدرك كيف تنظم وتحكم نفسها فلها جنودها وعمالها وعبيدها، فالنملة مثلا حشرة اجتماعية شعارها «أعظم خير لأكبر عدد» فيأتي عمالها بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل خلال فصل الشتاء، وينشئ النمل ما هو معروف بمخزن الطحن، وفيه يقوم النمل الذى أوتى أفكاكا كبيرة معدة للطحن بإعداد الطعام للمستعمرة ثم يقتله جنود النمل مقتنعة بأنه نال جزاءه الكافى فى الاستفادة من الغذاء أثناء طحنه!

وهناك أنواع من النمل تسمى بقر النمل أو عنزاتها، ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما لها، وهناك طائفة أخرى قد تزرع أمتارا مربعة بالأرز، ومنهم من يقوم بحرثها وزرعها ويتعاون الجميع فى حصادها. فمن الذى هداها لهذا؟.

٢ – إن كثيرا من الحيوانات مثل سرطان البحر إذا فقد مخلبا عرف أن جزءًا من جسمه قد ضاع، وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة، ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل لأنها تعرف بطريق ما حدودها وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم فإنها تسارع إلى صنع رأس بدلا منه، ويتساءل موريس (قبل أن يظهر موضوع الاستنساخ): متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعا جديدة أو لحما أو عظاما أو أعصابا للإنسان إذا كان ذلك حقا فى حيز الإمكان؟ وللرد على هذا السؤال الآن فإن علم

الهندسة الوراثية سيأتى لنا فى المستقبل بجزء من علم الله فى الاستنساخ وصدق الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥). حقا إن الكون وعالم الأحياء يتحدى ذكاءنا ونحن سنظل ناقصى علم ولن نستطيع الإجابة عن ذلك التحدى وصدق الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

٣ - إن الأميبا هى حيوان وحيد الخلية على درجة كبيرة من التطور، وهو مكون من ملايين لا حصر لها من الذرات فى تنظيم دقيق مرتب فى جميع مياه العالم، وطولها جزء من مائة من البوصة، وتشعر بالجوع، وتبحث عن غذائها عن قصد وعمد رغم صغر حجمها، فالحجم لا شىء فى حسبان اللانهائية، فالذرة لاتقل كمالا عن نظام المجموعة الشمسية، والأميبا تتوالد بالاستنساخ فتنقسم خليتها وتصبح اثنتين ثم تنقسم الاثنتان وتصيران أربعا، وهكذا إلى غير حد، كما تفعل الخلايا الآن فى كل مخلوق حى، فكل خلية تحتوى فى نفسها، فى تقسيمها الباكر، القدرة على إنتاج فرد كامل، وبذلك تكون صورا طبق الأصل من أسلافها، وجميع الأشياء الحية تبدأ بخلية واحدة وهذه الخلية ترغم كل نسلها على أن تؤدى الخدمات وأن تتبع دون انحراف تصميم

المخلوق الذى كان على الخلية الأصلية مضاعفته سـواء أكـان سـلحفا أم أرنبا. . وقد يمكن السؤال عما إذا كان للخلايا فـهم وإدراك أم لا، وسواء اعتقد البعض أن الطبيعة قد زودت الخلايـا بـالغريزة - مـهما تكن هذه أو بقوة التفكير، فلا مناص لنا من الاعـتراف بـأن الخلايـا ترغم بالإلهام الإلهى، على تغيير شكلها وطبيعتها كلها لكى تتمشى مع احتياجات الكائن الذى هى جزء منه. وكل خليـة تنتـج فـى أى مخلوق حى يجب أن تكيف نفسها لتكـون جـزءًا مـن اللحـم، أو أن تضحى نفسها كجزء من الجلد الذى لا يلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع مينا الأسنان وأن تنتج السائل الشفاف فى العين، أو أن تدخل فى تكوين الأنف أو الأذن. ثم على كل خلية أن تكيـف نفسـها مـن حيث الشكل، وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها. ومن العسير أن نتصـور أن خليـة مـا يمنـى أو يسـرى. . إن بعـض البلـورات المتشابهة كيميائيا تحول أشعة الشمس نحـو اليمـين وبعضـها الآخـر نحو الشمال. ويبدو أن مثل هـذا الميـل موجـود فـى الخلايـا. ومتـى وجدت فى المكان الصحيـح الـذى تخصـه، فإنـها تصبـح جـزءًا مـن الأذن اليمنى أو الأذن اليسرى. وآنذاك تواجه إحداهما الأخـرى فـى رأسك، وليس في كوعيك كما همـا عنـد الصرصور. . . وتقوسـاتهما متضادة، وحين تكمل تكون الأذنان متماثلتين إلى حد يصعـب عليـك عنده أن تميز بينهما.

إن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب، والحق أنها طائعة! والحياة تدفع إلى الأمام، بانية، مصلحة متوسعة، وخالقة ما هو حديث وما هو أفضل، بنشاط لا يفتر ولا مثيل له في الأشياء الجامدة. فهل هذا ناشئ عن إدراك؟ أم عن غريزة؟ أم أنه أمر يحدث فحسب؟ يمكنك أن تجيب عن ذلك بنفسك.

بيد أنك قد تقول الآن: إن كل ما ورد هنا يؤكد أن الحياة جاءت كتعبير عن القوة الإلهية وبأنها ليست مادية بل هندسة وراثية من تأليف الخالق المبدع والهادى الملهم المهندس الأعظم.

هداها الله جميعا، فسبحان الخالق الهادى كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ (طه: ٥٠).

٤ – ويقول أ. د. سعيد حوى(*):

ثعبان الماء متى اكتمل نموه، هاجر من مختلف البرك والأنهار، قاطعًا آلاف الأميال فى المحيط، قاصدًا إلى الأعماق السحيقة جنوب «برمودا» حيث ملتقى ثعابين الماء فى كل أنحاء العالم، وهناك يبيض - ويموت. أما صغارها تلك التى لا تمتلك وسيلة تتعرف بها على أى شىء، سوى أنها فى مياه قفرة فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلى

(*) من كتاب أ. د. سعيد حوى. الله جل جلاله.

الشاطئ الذى جاءت منه أمهاتها. ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة،ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الأوروبية أو العكس!

٥ - الزنبور يصيد الجندب النطاط، وينخزه بإبرته فى مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيًّا كنوع من اللحم المحفوظ، فلا يُكثر السم فيه بحيث يميته، أو يسمم لحم الأولاد إذا أكلوا منه، ولا يُقلله بحيث يبقى محتفظا بوعيه فيفر، وبعد ذلك يحفر له حفرة فى الأرض، ثم تأتى أنثى الزنبور وتضع بيضا فى المكان المناسب بالضبط، ثم تغطى هذه الحفرة وترحل فرحة، ثم تموت بعد أن أمنت وسيلة الحياة لأولادها. وهم صغار لا يستطيعون الحركة، ولابد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكرره دائما، وإلا ما بقيت زنابير على الأرض.

٦ - خطر لعالم أمريكى أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض فى نفس الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه فى جهاز التفريخ، نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذى حرمه، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة.

واستمر العـالم فى عمله حتى جـاء دور الفقـس وفـات ميعـاده ولم تفقس بيضة واحدة، وأعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيـض حتـى إذا واتـى ميعاد الفقس خرجت الفراريج. وآخر تعليل علمـى لتقليـب البيـض، أن الفرخ حينما يخلق فى البيضة ترسب المـواد الغذائيـة فـى الجـزء الأسفل من جسـمه إذا بقى بـدون تحريـك أوعيتـه، ولذلـك فـإن الدجاجة لا تقلب البيض فى اليوم الأول والأخير.

بهذه الهداية الكاملة فى عملية بقاء الجنس، يبقـى الدجـاج فـى العالم، لأنه يعلم تمامًـا مـا ينبغـى أن يفعلـه. ولابـد أن ذلـك فعلتـه الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج.

٧ – حيوان الإكسيلوكوب يعيش منفردًا فى فصل الربيـع، ومتـى باض مات؛ فالأمـهات لا تـرى صغارهـا، ولا تعيـش لتسـاعدها فـى غذائها ودفاعها عن نفسها، وهى لا تستطيع الحصول علـى غذائـها مدة سنة كاملة، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب، فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلـب طلـع الأزهـار وبعـض الأوراق السـكرية، وتحشو بها ذلك السرداب، ثم تبيض بيضة، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينـة لتكـون سـقفًا لذلـك السـرداب، وتصنـع بعـد ذلـك سردابًا آخـر، فـإذا فقسـت البيضـة وخرجـت الـدودة كفاهـا الطعـام المدخر سنة !.

٨ – يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية فى التربة بالشعيرات الجذرية، وتصعد العصارة بالضغط الأسموزى إلى أعلى، ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة، أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تغذى الأجزاء العلوية، وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة. وقمع البلحة هو مصفاتها التى تسمح بمرور المواد الغذائية تمامًا إلى الداخل فقط، وهى التى تكون الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة، والتى منها ينشأ جسم البلحة الطرى، وهيكل النواة الصلب. وبين الحلو والمر والصلب والطرى غلاف شفاف لا يكاد يرى، ولم يحدث إطلاقًا أن أخطأت نخلة، فكونت نواة البلحة فى الخارج والبلحة فى الداخل، أو كونت البلحة صلبة والنواة طرية.

٩ – الحيوان المنوى يشبه العلق فى حركته، له رأس مفرطح، وعنق قصير، وذيل طويل، ويتحرك بلولبية ذيله، وقد أمد بقوة مقاومة، إذ إنه فى الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه، فإذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه، ويستمر فى الحياة عدة أيام متوالية فى انتظار البويضة التى يدفع بها مبيض الأنثى – وهو جهاز التناسل عندها – ليؤدى إلى إخصابها، ويتم كل ذلك بهداية منقطعة النظير. إذ لا دخل لأية قوة – كائنة ما كانت كيماوية أو حيوية أو عقلية أو إدراكية – فى توجيه الحيوان المنوى إلى بويضة الأنثى.

١٠ - فى عملية الرضاع كل شىء يتم بهداية. تنمو الغدد التى تصنع اللبن مدة الحمل، ويدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان، وفى نهاية الحمل وبدء الوضع، تتلقى هذه الغدد من الغدة النخامية الموجودة فى قاعدة الجمجمة أمرًا بالبدء فى صنع اللبن، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدى أمه بهداية لا حد لها، وعملية الرضاعة عملية شاقة، إذ إنها تقتضى انقباضات متوالية فى عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه، وحركات متواصلة فى فكه الأسفل، وتنفسًا من أنفه، ويقوم الطفل بهذا كله بهداية تامة من أول رضعه حتى ساعة فطامه.

١١ - هناك بعض العصافير التى تنتقى مواقع أعشاشها فى الأماكن المختارة من الشجر، فتجدل جديلة تقارب الذراع، ثم تبنى عشها فى طرفها الأسفل، على هيئة سلة مدلاة فى الهواء، خشية الهوام والجوارح، وبقية الأعداء، مما يؤكد أنها تحوطت عندما فكرت فى بناء أعشاشها بالإضافة لإتقانها المتناهى في بنائها بحيث لا يختلف شكل عش عن شكل عش آخر للفصيلة الواحدة، مهما تباعدت الديار بينهما لدرجة أن سكان المنطقة يعرفون نوع الطير من شكل عشه.

١٢ - ومن الطير ما لا تخونه الذاكرة مهما طال الزمن كالببغاوات التى قيل إنها لا تنسى أصحابها مدى حياتها.

١٣ - وهناك الأفيال التـى تقـوم بالأعمـال الجبـارة والدقيقـة فـى نفس الوقت حتى إنها تختبر ما تحمله عند وضعه على الأرض، فإذا وجدته غير ثابت ثبتته بحصاة أو ما شابه ذلك.

١٤ - وهنـاك الكـلاب بشـتى أنواعـها، فمنـها مـا تقـوم بأعمـال المراقبة والحراسة، واقتفاء الآثار ومساعدة رجال الأمن على اكتشـاف المجرمين.

١٥ - وكل ما ذكرناه، يـأتي دون القـردة رتبـة ومـهارة، إذ إنـها تعد أرقى العجماوات ويمكن تدريبها علــى أعمـال تحتـاج إلى مـهارة وقدرات عالية.

١٦ - وليس مـا ذكرنـاه هـو أعظـم الصفـات وأندرهـا لحيوانـات اليابسة، فهناك طائر يدعى «صياد فراشة العته» الذى يكتشفها فـى الظلام فى الذبذبات التي يرسلها، وعندما يندفع نحوهـا ليصيدهـا، تكون قد غيرت مكانها قبـل أن ترتـد إليـه ذبذباتـه بعـد اصطدامـها بجسم الفراشة، لأن جهاز سمع الفراشة أسرع تـرددًا مـن جـهازه!! وكذلك الخفاش الذى يطير فى الظلام دون اصطدام بأى عائق نتيجـة ذبذبات صوتية يطلقها من فمه ويستقبلها بأذنه ليتعرف على المسافة بينه وبين أى عائق فيتحاشى الاصطدام، وتعلم الإنسـان منـه فصنـع الرادار للتعرف على مواقع الطائرات فى جو السماء.

١٧ – وإذا كان هذا وصف بعض حيوان اليابسة، فإن للبحر حيواناته التي تتصف بالمدهشات، وتبعث على العجب، فمنها ما لا يسمع ولا يرى، ومع هذا يشعر الذكر منها بوجود أنثاه، وهي على بعد عدة أميال عنه؛ لأن الأنثى وقت الإخصاب تبعث بذبذبات ونبضات كالنبضات الإلكترونية، فيلتقطها الذكر، ويتجه نحوها، بدلالة تلك النبضات، كما نستدل في ليلة حالكة الظلام على آلة بهدى صوت محركها، أو كما نتجه ليلاً نحو بيت في الصحراء. مسترشدين ببصيص الضوء الذي ينبعث منه (وليكن هذا الموضوع الثابت علميًّا خير مثل يؤكد لنا أن للنمل أسلوبا مماثلا أو مغايرا للتفاهم).

١٨ – وفي البحر أنواع من الحيوانات، تكاد لا تميزها من النبات، كالشعب المرجانية، كما أن فيه أنواعا راقية، كالحوت الذي يعيش في جماعات لها نظم حياتها، وله من التصرفات ما يدل على العقل ونضج العاطفة. إذ إنه ينقذ الغرقى ويوصلها للشاطئ ثم يعود. مما حدا كثيرا من الدول على تحريم صيده أو التعرض له.

إن هذه القدرات والمهارات التي تتمتع بها هذه الحيوانات لم تكن وليدة علم اكتسب، فالنحلة لم تتعلم فن بناء خليتها، ولا أم العصفور علمته كيف يجدل عشه على هيئة سلة معلقة في الهواء، وإذا فرضنا جدلا أن هذه المخلوقات وجدت من يعلمها ويدربها. فمن درب فرخ

الدجاج على تمييز صوت النذير من أمه، قبل أن يفقس؟ بحيث لو وضع البيض على مسطح من زجاج قبل فقسه بيوم وسمع إنذار الدجاج تدحرج البيض، ومَنْ علّم النبات التفنن العجيب فى توزيع بذوره فى أنحاء المعمورة؟ قذفًا وطيرانًا وتعلقًا! وجعل بعضه يرتب بذوره كل ثلاث فى غلاف يمنعها من أن تنبت دفعة واحدة بل بالتوالى بمعدل بذرة واحدة كل سنة!

هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية، فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق، يرى هذه الظاهرة فى كل شيء على الإطلاق، فهى ظاهرة تنتظم شئون الكون كله بما فيه من الإلكترونات فى الذرة، إلى الذرة، إلى العناصر، إلى الأرض، إلى الشموس، إلى المجرات بكل حوادثها، فى كل خلية من خلايا الحيوان، إلى كل جهاز من أجهزته، إلى كل حيوان من وحيد الخلية، إلى النحلة، إلى الإنسان. وصدق الله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ (طه: ٥٠).

يقول الأستاذ الدكتور صابر طعيمة(*) تعليقا على معجزات الله فى خلقه: إنه العلم الملهم والمهارة المعطاة من الوهاب الأعظم الذى لم يهمل شيئًا خلقه، بل كفل له أسباب الحياة والسلامة.

(*) الإسلام يقينا لا تلقينا، دار الجيل بيروت، ١٩٧٩.

والله سبحانه وتعالى يتولى أمر مخلوقاته بعلم لا يدانى، فهذه غريزة الجوع، ألزمت كل ذى كبد حى أن يركض برجليه، أو يطير بجناحيه، أو يزحف على بطنه، أو يعوم فى الماء، سعيًا وراء ما يقيم أوده، ويبقى عليه حياته، ثم تكفل ببقاء نوعه بإيداع غريزة الجنس فيه، ليميل الذكر والأنثى لبعضهما البعض، فيتم التزاوج بينهما فتنشأ أجيال جديدة من جنسهما، لتأخذ دورها فى الحياة، فيزداد ذلك الجنس نماء وتنوعًا.

ولكى يضمن للمواليد الرعاية حتى تستقل وتعتمد على نفسها، لتلحق بركب الحياة، أودع قلوب الأمهات عاطفة حب خالدة ومتفانية فى سبيل مواليدها.

وإذا دخل فى روع أحد أن هذه العاطفة مردها حرص الأم على منفعتها، التى ستجنيها من وليدها عندما يشب، نقول: إن كانت الأم الآدمية محل مظنة فى هذا، فمن أين للعجماوات إدراك مستقبل مصالحها، على يد فراخها وخرافها وعجولها؟؟.

إن هذه العاطفة طبيعية وخالية من الغرض، ولو لم تكن كذلك لما قامت العصفورة بالهجوم على القط، ورمت نفسها عليه دون فراخها، وهى الضعيفة التى تموت خوفًا عند رؤيته. لكن عاطفة الأمومة الصادقة أعمتها عن مصيرها. وهو الهلاك المحقق فى سبيل إنقاذ فراخها من الفناء، وهى العاطفة التى تجعل الفرس - وهى

البهيمة الخرساء - ترفع قدمها في الليلة الظلماء وتضعها بتؤدة وتحسس، خشية أن تطأ مهرها، وهي التي تجعل الناقة تمضي ليلها ونهارها بنواح يهز المشاعر عند عزل وليدها عنها.

ما معنى هذه الوحدة في الغرائز التي ذكرنا؟ والتي لم نذكر، كالنوم الذي يغشى الجميع، والخوف الذي يحل بالقلوب عندما تهدد حياة الحيوان، فيدافع عن نفسه، أو يراوغ أو يهرب أو يذل ويستسلم؟!.

معناه أن وراء ذلك خالقًا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات، وأنه لم يهمل من أمر مخلوقاته شيئا. فهدى كلا طريقه وأودع فيه من الغرائز التي تحفزه على مواكبة الحياة، وقيض له أسباب عيشه لتستمر فيه شعلة الحياة، ووسائل أمنه صيانة لهذه الحياة، فجاءت كلها شهود حق على أنه متفرد في صفاته. فهو المنشئ والمدبر بعلم مبدع. والرقيب بعلم محيط، والراعي لخلقه، بفيض رحمته التي وسعت كل شيء.

ولنكتف بما تصفحناه من هذا الكون المليء بالمشاهد والملموس الذي يستعين به كل ذي بصيرة ليستوضح طريقه إلى الله، ويستقرئ، مما أمامه عظمة من أوجد ما أمامه، وما أمامه يشكل سفرًا عظيما من وسائل الإيضاح، للراغبين في البحث عن الحقيقة الكبرى، ألا وهي معرفة ربهم الذي حباهم بفيض إلهامه، ووفرة

نعمه الظاهرة والباطنة. فأصبحوا يعلمون ما لم يكونوا يعلمون. ولفـرط كرمه يرفلون فى خيراته، دون الإحساس بأنه صاحب المنة عليـهم، وولى ما هم فيه من نعيم مقيم! فصاروا يتبارون فى التنكـر لربوبيتـه وفضله عليهم. وأخذوا ينسبون كل شىء إليهم أو لغيره ظلمًا وعدوانًـا حتى إن من يقر بفضله، فيقـوم بشـكره يعتبرونـه درويشًـا لا يعـرف الواقع، لغلوه فى الغيبيات والخيال العقيم!

لكنه الكبير المتعال، الذى إن أنكره عباده ربًّا لهـم، فلـن ينكرهـم عبيدًا له فكتب على نفسه الرحمة، ليقابل جحـود عبـاده، بـالجود علـى عبـاده، لأنـه تبـارك وتعـالى، منزه عـن صفـات المخلوقـات المحدودة القدرة، المشـوبة بـالضعف الظـاهر، البعيـدة عـن الكمـال، المنفرد به الله جل جلاله.

إن الإنسان يقف خاشعًا أمام قدرات الله اللانهائية والتى لا يكفى البحر - لو كان - مدادا لكتابة سطورها، بل ويقف الإنسـان خاشـعا أمام عجائبها وأسرارها كما فى قول الشـاعر مسبحا لعظمـة الله فـى قطرة من محيط الكون الواسع:

وأسـألْ بطونَ النحـل كيف تقاطرت	شـهـدا وقـل للشـهـد مـن حـلاَّكـا
يـا منبـت الأزهـار عاطـرة الشــذا	هــذا الشـــذا الفــواح نفـح شذاكـا
يـا مرســل الأطيـار تصـدح فى الربا	صَدَحاتُهــا إلهـــام موســيقاكا
يـا مجـرى الأنهـار مـا جريانهـا	إلا انفصـــال قطـــرة لنداكـــا

ربـــاه هـأنـــذا خَلُصْت مـن الهوى واسـتقبل القلــبُ الخلــىُّ هـواكــا

وبحثت عـن سـر السـعَادة جاهـدا فـوجـدت هـذا السـر فـى تقـواكـا

وتـركـتُ أُنسِى بالحيـاة ولهوِهـا ولقيـت كـل الأُنـس فـى نجـواكـا

الكـــون مشحــــون بأســـرار إذا حـاولـت تفسـيرا لهـــا أعياكـــا

الله فـــى كـل الخــــلائق مـاثـل إن لـم تكـــن تـــراه فهـو يراكـــا

وقد توقف بعض علماء الغـرب أمـام ظـاهرة هدايـة الله لمخلوقاتـه ورأوا فيها دليلاً على وجود الله. يقول أ. د. ستانلى كونجدن أسـتاذ الفيزياء بجامعة فلوريدا:

«إن جميع ما فى الكون يشهد علـى وجـود الله سـبحانه، ويـدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلمـاء بتحليـل ظواهـر هـذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقـة الاسـتدلالية فإننـا لا نفعـل أكـثر مـن ملاحظـة آثـار أيـادى الله وعظمتـه، ذلـك هـو الله الـذى لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ولكننا نـرى آياته فى أنفسنا وفى كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلـوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته سبحانه»(*).

(*) الله يتجلى فى عصر العلم، نخبة من العلمـاء الأمريكيين، مـترجم، مؤسسـة الحلبى وشركاه ١٩٦٠.

ويقول أ. د. إدوارد. لوثر أستاذ الحشرات بسان فرانسيسكو: «إن دراسة العلوم بعقل متفتح تجعل الإنسان يسلم بضرورة وجود الله والإيمان به».

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨).

إن كل كشف جديد يدعم إيمان العلماء بوجود الله وقدرته» وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

ويقول أ. د. بول كلارنس أستاذ الفيزياء بكاليفورنيا فى مقالة (الأدلة الطبيعية على وجود الله): «إن هناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجود الله تعالى وعلى أنه العليم الذى لا نهاية لعلمه، والحكيم الذى لا حدود لحكمته والقوى إلى أقصى حدود القوة» وصدق الله تعالى فى قوله:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سبأ: ١ - ٢).

حقا إن آيات الله الدالة عليه واضحة جدا فى كــل شــىء، ولكـن الاهتداء إليها يحتاج إلى أخلاق الإنسان كما فى قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

وربما يجد الكــافر فـى ظـاهرة الهدايـة تلـك عـذرًا لكفـره ويقـول من باب الجـدل إنـه لم يؤمـن لأن الله لم يـهده للإيمـان. نقـول: إن المرجع فى كل شــىء إرادة الله، ولكـن ليس فـى ذلـك عـذر لمعتـذر أو متعلـل أو كـافر أو متـهرب مــن المســئولية بعــد أن أعطــاه الله حرية الاختيار، كما فى قوله تعالى واصفًا القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (التكوير: ٢٧ – ٢٩).

وهذا يعنى أن مشيئة الله محيطة بكــل شــىء دون إلغـاء لاختيـار الإنسان ومشيئته كما فى قوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ (المائدة: ١٦).

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦).

وقد اختارت السماوات الخضوع طوعا فهداها الله وسخرها للإنسان الذى أعطاه الله حرية الاختيار بين الهداية والفجور، وبين الخير والشر كما فى قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ (البلد: ١٠). وعليه أن يعمل بحريته ليحقق معنى الابتلاء لينجح فى الامتحان ويقتحم العقبة ولا يستعمل حريته فى غير طريقها الصحيح وإلا فسوف يصبح ضالا زائغًا عن الحق كما فى قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ ﴾ (الصف: ٥).



الفصل الثالث

ظاهرة الجمال والإبداع

لم يكن الجمال فى النظرة المادية الملحدة صفة من صفات الطبيعة، بل اعتبره «فرويد» متعة شخصية! ويقول العالمان الأمريكيان «روبرت أو جروس» و «جورج ساتينو»(*) إنه وعلى نقيض ذلك، نجد الجمال فى النظرة الإيمانية الجديدة عند علماء الغرب صفة من صفات الطبيعة بل وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية. من ذلك مثلا أن جيمس واتسن فى كتابه «اللولب المزدوج» يذكر كيف أن الجمال هدى إلى اكتشاف التركيب للجزىء الحيوى د. ن. أ D.N.A. فيقول: «كنا نتناول طعام الغذاء ويقول كل منا للآخر إنه لابد من وجود تركيب على هذا الجانب من الجمال. «وأقر جميع الحاضرين تقريبًا بأن تركيبا فى مثل هذا الجمال لابد من أن يكون موجودًا».

ويجمع أبرز علماء الفيزياء فى القرن العشرين على أن الجمال هو المقياس الأساسى للحقيقة العلمية. فالفيزيائى «ريتشارد فينمان» يرى «أن المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها وبساطتها» ويعلن هايزنبيرغ أن «الجمال فى العلوم الدقيقة وفى الفنون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الاستنارة والوضوح».

(*) العلم فى منظوره الجديد، ترجمة كمال فلايلى، عالم المعرفة، العدد ١٣٤ لسنة ١٩٨٩.

وقد أحرز كبار علماء الفيزياء النظرية في عصرنا هذا كشوفا كبيرة حين نشدوا الجمال، ويلاحظ فيرنر هايزنبيرغ فيما يتعلق بميكانيكتا الكم - وهو المجال الذى قام فيه ببحوث رائدة - أنه ثبت فى الحال أن «النظرية مقنعة بفضل كمالها وجمالها التجريدى». وعلماء الفيزياء يرون أن النظرية النسبية هى أجمل النظريات الفيزيائية الموجودة على الإطلاق. ويشير «إيرون شردونغر» بها على هذا النحو: «إن نظرية أينشتاين المذهلة في الجاذبية لا يتأتى اكتشافها إلا لعبقرى رزق إحساسا عميقا ببساطة الأفكار وجمالها». كما أشار أينشتاين نفسه إلى جمال هذه النظرية فى خاتمة مقالته الأولى عن الجاذبية حيث قال: «لا يكاد أحد يفهم هذه النظرية تمام الفهم ويفلت من سحرها».

والجمال معيار أساسى فى الفيزياء لدرجة أنه يقدم حتى على التجربة. ويعلن الفيزيائى «بول ديراك» أن «وجود الجمال فى معادلات العالم أهم من جعل هذه المعادلات تنطبق على التجربة». ونستطيع أن نفهم ذلك إذا تصورنا العالم النظرى أمام كمية ضخمة من البيانات التجريبية المذهلة. فأى النتائج هى الأهم؟ وكيف ينبغى أن تفسر جميعها؟ ما هو النمط الملاحظ؟ والجمال فى هذا المقام دليل جدير بالثقة. يقول الفيزيائى «جورج تومسون»: «إن المرء يستطيع دائما أن يقدم نظرية، أو عددا كبيرا من النظريات، لتفسير حقائق معروفة، بل للتنبؤ بحقائق جديدة أحيانا. والجمال هو الفيصل. فالنظريات بعضها صعب المأخذ ومحدود النطاق وتعسفى. وقلما تدوم هذه طويلا».

بل إن الجمال يتحدى «الحقائق». ومن الأمثلة التوضيحية على ذلك واللافتة للنظر ما نجده في بحث علمي قدمه الفيزيائيان «ريتشارد فينمان» و «مرى جيل - مان» عام ١٩٥٨ وعرضا فيه نظرية جديدة لتفسير التفاعلات الضعيفة. وكانت النظرية تناقض بشكل صارخ عددا من التجارب. أما الجانب الرئيسي الجذاب فيها فكان الجمال. وقال العالمان فينمان وجيل - مان: «إنها نظرية عالية ومتناسقة وهي أبسط الإمكانات، مما يدل على أن تلك التجارب غير صحيحة». ويعلق جيل - مان على ذلك بقوله: «غالبا ما يطرح العالم النظرى مقدارا كبيرا من البيانات على أساس أنها إذا كانت لا تنسجم مع خطة أنيقة فهى غير صحيحة. وقد حدث هذا معى مرات عديدة، كما فى نظرية التفاعلات الضعيفة: لقد كان هناك تسع تجارب تناقض النظرية وكلها بلا استثناء غير صحيحة. فإذا كانت لديك نظرية بسيطة تتفق مع سائر قوانين الفيزياء، ويبدو أنها تفسر فعلا ما يحدث، فلا عليك إن وجدت كمية قليلة من البيانات التجريبية التى لا تؤيدها. فمن المؤكد تقريبا أن تكون هذه البيانات غير صحيحة».

إن الجمال فى الفيزياء هو السمة الغالبة. فالتجربة تخطئ فى الغالب والجمال قلما يخطئ. فإذا اتفق أن وجدت نظرية أنيقة للغاية لا تنسجم مع مجموعة من الحقائق فهى لا محالة واجدة لها تطبيقا فى مجال آخر. فخلال العشرينات من هذا القرن، مثلا، أصبح الرياضى والفيزيائى

«هرمان فيل» مقتنعا بأن نظريته فى القياس لا تنطبق على الجاذبية، ولكنه نظرا لكمالها الفنى لم يرد التخلي عنها كليا. وقد تبين بعد ذلك بوقت طويل أن نظرية «فيل» تلقى ضوءا على ديناميكا الكم الكهربائية، فجاء ذلك مصداقا لحسه الجمالى.

والجمال – وهو أبعد ما يكون عن الأسلوب غير العلمى – يبث الحياة فى العلم والجمال الذى يبحث عنه الفيزيائيون ليس نتاج عاطفة فردية أو خصوصية، بل هو على عكس ذلك. فالفيزيائيون أنفسهم يشيرون إلى ثلاثة عناصر محددة للجمال. ويلخص «أينشتاين» هذه العناصر الثلاثة للجمال العلمى بعبارة واحدة فيقول: «النظرية تكون أدعى إلى إثارة الإعجاب كلما كانت مقدماتها أبسط، والأشياء التى تربط بينها أشد اختلافا، وصلاحيتها للتطبيق أوسع نطاقا». فالبساطة إذن هى العنصر الأول من عناصر الجمال. ويقصد بعبارة «الأشياء التى تربط بينها أشد اختلافا» الطريقة التى تنسق بها النظرية بين أمور متباينة تبدو كما لو كانت ظاهريا لا صلة بينها. وهكذا نستطيع أن نطلق على العنصر الثانى اسم «التناسق». واتساع نطاق تطبيق النظرية يراد به روعتها، أى مدى وضوح النظرية بحد ذاتها وإلقائها الضوء على غيرها من الأشياء. إن العبارة التى استخدمها «جيل – مان» والتى وردت آنفا نظرية بسيطة تنسجم مع سائر قوانين الفيزياء، ويبدو أنها تفسر فعلا ما يحدث «تصور الجوانب الثلاثة للجمال بعبارة واحدة مختصرة – البساطة التناسق والروعة – ويتطلب كل من هذه العناصر شرحا موجزا.

البساطة: توجد اليوم نظريات أخرى فى الجاذبية إلى جانب نظرية أينشتاين، ولكن ما من نظرية من النظريات تؤخذ مأخذ الجد لافتقارها إلى البساطة. ويلاحظ عالم الفيزياء الفلكية «روجر بنروز» أن «معظم النظريات المنافسة ثبت بطلانها بالحجج المقنعة. أما القلة القليلة الباقية فهى على الأغلب مستنبطة مباشرة بحيث تنسجم مع تجارب سبق إجراؤها بالفعل. وليس هناك أية نظرية منافسة تدانى النسبية العامة فى أناقتها وبساطة افتراضها».

ومبدأ البساطة يستلزم شيئين اثنين - الكمال والاقتصاد - ويقول لنا عالم الرياضيات والفيزياء «هنرى بوانكاريه» «لأن فى البساطة والضخامة كلتيهما جمالا فنحن نؤثر البحث عن حقائق بسيطة وعن حقائق كبيرة». والنظرية الجميلة بهذا المعيار لابد لها من أن تأخذ فى الحسبان كل الحقائق، وألا تشمل إلا ما هو ضرورى. فلا تفريط ولا إفراط. أجل إنه معيار يصعب استيفاؤه. ويقول هايزنبيرغ عن نظرية الكم: «لقد اتضح على الفور أنها مقنعة بفضل كمالها وجمالها التجريدى».

التناسق: يعلن أينشتاين أنه «لا علم من غير الاعتقاد بوجود تناسق داخلى فى الكون». ويصف هايزنبيرغ التناسق بأنه «انسجام الأجزاء بعضها مع بعض ومع الكل». والنظرية الجيدة فى أى علم من العلوم هى التى توفق بين حقائق عديدة لم تكن فيما مضى تربط بينها صلة. كما أن التناسق يدل ضمنا على التماثل. إن فى جميع قوانين الفيزياء تماثلا

سارا. يقول ويلر: «إن كل قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شيء من التماثل في الطبيعة». ويضيف هايزنبيرغ إن «خواص التماثل تشكل على الدوام أهم سمات النظرية» وقانون نيوتن الثالث مثال معروف على التماثل في الفيزياء: «لكل فعل دائما رد فعل معاكس ومساو له». وهذا التماثل التام موجود على المستوى دون الذرى حيث يقابل كل نوع من الجسيمات جسيما مضادًا له الكتلة نفسها، ولكن بخصائص معاكسة. بل إن التنبؤ الصحيح بوجود العديد من الجسيمات دون الذرية تم في المقام الأول على أساس هذا التماثل والازدواجية وصدق الله تعالى حيث قال:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ (يس: ٣٦).

الروعة: للنظرية التى تتسم بهذه الصفة وضوح شديد فى ذاتها. وهى تلقى ضوءًا على الكثير من الأشياء الأخرى. موحية بإجراء تجارب جديدة. إن نيوتن، مثلا، قد أدهش العالم بتفسيره للأجسام الساقطة، ولظاهرتى المد والجزر، ولحركة الكواكب والمذنبات بثلاثة قوانين بسيطة. ويعلن «جورج تومسون»: «إنه لأمر جميل فى الفيزياء كما فى الرياضيات أن تستطيع نظرية من النظريات الجمع بين ظواهر تبدو شديدة الاختلاف، وتبين اتصال الظواهر بعضها ببعض اتصالا وثيقا، أو أن تجمع بين مختلف عناصر الظاهرة الواحدة». وهذا بالضبط ما تفعله نظرية النسبية العامة بطريقة أنيقة

ومدهشة، كما يشير إلى ذلك عالم الفيزياء الفلكية «س. تشاندراسيكار» بقوله: «إنها تكمن أساسا فى الربط بين مفهومين جوهريين بوضع أحدهما بجانب الآخر، وهما مفهومان ظَلا يعتبران حتى ذلك الحين مستقلين تمام الاستقلال: مفهوما المكان والزمان من جهة، ومفهوما المادة والحركة من جهة أخرى». وعلاوة على ذلك، أثبتت النسبية العامة روعتها غير العادية بإلقائها الضوء على علم الكونيات، والفيزياء الفلكية.

والنظرة القديمة تذهب إلى أن البساطة وغيرها من عناصر الجمال ليست من قوانين الطبيعة، ولكنها على أبعد تقدير من قوانين العقل البشرى. ونيوتن لا يوافق على هذا الرأى، بل يعزو الجمال إلى الطبيعة، لا إلى الإنسان، فيقول: «الطبيعة تسرها البساطة وهى غير مولعة بأبهة الأسباب الزائدة على الحاجة. وشهادة علماء القرن العشرين جلية فى هذه المسألة. يقول فينمان: «فى الطبيعة بساطة ومن ثم جمال عظيم» وهو لا يعزو الجمال إلى المشاهد. ويؤكد ويلر أن «كل قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شىء من التماثل فى الطبيعة» لا إلى تماثل عقولنا. ويؤكد ماكس بورن أن «الفيزيائى الحقيقى يؤمن إيمانا راسخا ببساطة الطبيعة وبوحدتها برغم أية ظواهر معاكسة». وقد قال هايزنبيرغ ذات مرة فى حديث جرى بينه وبين أينشتاين: «أعتقد مثلك أن لبساطة القوانين الطبيعة صفة موضوعية، وأنها ليست مجرد نتيجة اقتصاد فى التفكير. وإذا كانت الطبيعة تقودنا إلى صيغ رياضية على جانب عظيم من البساطة

والجمال فنحن لا نملك إلا الاعتقـاد بصحتـها، وبأنـها تكشـف عـن سمة حقيقية من سمات الطبيعة».

ويضيف تشاندراسيكار قائلا: «كلنا نحس بجمال الطبيعة، وليس مما ينافى العقل أن تشترك العلوم الطبيعية فـى بعـض جوانـب هـذا الجمال». وهذا يعنى مرة أخرى أن الطبيعة، لا الإنسان، هى مصـدر الجمال، ولماذا نعثر على جمـال فـى العلـوم الطبيعيـة؟ لأن الطبيعـة تزخر بالجمـال. ويعلـن الفيزيـائى «ديفيـد بـوم» أن «كـل مـا يمكـن العثور عليه فى الطبيعة يكـاد يتكشـف عـن شـىء مـن الجمـال فـى الإدراك الفورى كما فى التحليل الفكرى على السواء». ويقول «هنرى بوانكاريه»: «العالم لايدرس الطبيعة لأن فى دراستها منفعة، ولكنـه يدرسها لأنه يجد متعة فى ذلك، وهو يجد فى دراستها متعـة لأنـها جميلة. ولو لم تكن الطبيعة جميلة لما كانت جديرة بـأن تعـرف ولمـا كانت الحياة جديـرة بـأن تعـاش». ويضيـف كـارل فـون فايتزسـاكر تفسيرا لذلك فيقول: «إن مبدأ الاقتصاد فى التفكير الذى يـتردد علـى الألسـنة يفسـر، علـى أحسـن الفـروض، سـبب بحثنـا عـن قوانـين بسيطة، ولكنه لا يفسر سبب عثورنا عليها». فالنظرية الجديـدة إذن تطرح الجمال معيارا فى العلوم لأن الطبيعة جميلة. ومن وجهة النظر هذه فالعالم الذى يعمى عن رؤية الجمال هو عـالم ضئيـل الحـظ مـن العلم.

ولأن الفيزياء فى النظرة الجديدة تعترف بأن الجمـال خاصـة مـن خواص الطبيعة فهى بذلك تشق طريقا مشـتركا بـين العلـوم والفنـون

الجميلة. والفيزيائى والروائى «ش. ب. سنو»، بعد خبرته فى كل من العلوم والفنون، مؤهل بطريقة غير عادية للتحدث عن الجمال الموجود فى كلا المجالين. فهو يقول: «كل من اشتغل فى أى وقت بعلم من العلوم يعرف مدى ما حصل عليه من لذة جمالية. أى أن أحدنا، فى ممارسته الفعلية للنشاط العلمى وفى مسيرته إلى اكتشاف ما، بالغا ما بلغ من التواضع لا يملك إلا أن يحس بوجود الجمال. فالتجربة الذاتية - تجربة المتعة الجمالية - هى على ما يظهر عين المتعة التى يحصل عليها المرء من نظم قصيدة، أو تأليف رواية أو قطعة موسيقية.

والعنصر الأخير من عناصر الجمال هو التألق. يقول «إدوارمانيه»: «الضوء هو الشخصية الرئيسية فى لوحة الرسم». ويقترح «ليوناردو دا فينشى»، فى الكتيب الذى وضعه عن فن الرسم، رسم أشخاص رسما تخطيطيا وهم يجلسون فى مدخل بيت مظلم فيقول: «هذا الأسلوب فى معالجة وتكثيف الضوء والظل يضيف الشىء الكثير إلى جمال الوجوه» غير أن الضوء يكتسب بهاء خاصا وإشراقا قويا عندما يقسم إلى ألوان. ومن هنا جمال غروب الشمس، وقوس قزح، والأسماك الاستوائية، والفراش، والأزهار، ومن دواعى إعجابنا بالرسوم الانطباعية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر أنها تؤكد على الجمال الاستثنائى للضوء واللون.

أما بخصوص الموسيقى فمما لا سبيل إلى إنكاره أن وضوح الصوت عنصر من عناصر جماله. يقول «آرون كوبلاند»: «إن تردد النغمة

في الموسيقى هو نظير ألوان الضوء في لوحة الرسم». فالنغمة الصوتية أو «اللون النغمى» يمكن الأذن من التمييز بين الناى والبوق حتى حين تعزف الآلتان كلتاهما النغمة نفسها. وفى القرن التاسع عشر أخذ الملحنون يستخدمون اللون النغمى لإنتاج تألق موسيقى أشبه بتألق الألوان الملاحظ فى الرسوم الانطباعية.

وهكذا فالبساطة والتناسق والتماثل والتناسب والتألق والوضوح – وهى عناصر نلحظها فى أجمل النظريات الفيزيائية – لها نظائر موازية فى الجمال الذى نجده في الرسم والموسيقا. وليس من العسير أن نتصور أن هذه المعايير الجمالية ذاتها تنطبق كذلك على الشعر والرقص وغيرهما من الفنون. والنظرة الجديدة تبين أن عناصر الجمال غير المرئى والذهنى فى الفيزياء تماثل عناصر الجمال المرئى والمسموع فى الفنون الجميلة. إن العالم والفنان فى النظرة الجديدة ينشدان الهدف الجمالى نفسه عبر مسالك مختلفة. يقول هايزنبيرغ: «لعل من الصواب أن نقول إن عالم الشعر كان مألوفا لدى جميع العلماء الكبار حقا. ومهما يكن من أمر فالفيزيائى يحتاج كذلك إلى اكتشاف أوجه التناسق بين الظواهر الطبيعية».

ولكن ما هو سر هذا الجمال والإبداع فى الطبيعة لدرجة أن مصممى الأزياء والمنسوجات والفنانين يستوحون أفكارهم من معرض الطبيعة الدائم مثلا فى بلورات الثلج كما نراها تحت الميكروسكوب، أو من الزهور وألوان قوس قزح وشروق وغروب الشمس.

وهكذا نرى أن الشاعر والرسام وعالم الأحياء والكيميائى والفيزيائى يلتقون جميعا بجمال العشب. وجمال الطبيعة ليس جمالا سطحيا، بل هو متغلغل فى الأعماق. وفى جميع الأشياء الطبيعة، حية وغير حية، وفى كل مستوى داخل كل شيء حى، من مروج الأعشاب إلى الإلكترون والبروتون والنيوترون، نرى الجمال متغلغلا في الطبيعة. وهذا الجمال الوفير هذه الوفرة والمتنوع هذا التَّنوُّع في شتى المستويات لا يمكن أبدا أن ينشأ من الصدفة. وينتهى الفيزيائى هنرى مارجينو إلى أن جمال الطبيعة لا يمكن عزوه إلى الصدفة أو الضرورة فيقول: «إننا لا نعتقد أن الجمال منحصر فى عين الناظر، بل إن هناك سمات موضوعية تكمن على الأقل وراء بعض التجارب الجمالية، إن لم نقل وراءها جميعا، مثل معدلات تردد أنغام الوتر الكبير، أو تناسق الأشكال الهندسية، أو الجاذبية الجمالية للألوان المتنامة المتجاورة. صحيح أنه ليس فى أى من هذه الأشياء ما يساعد على البقاء، ولكنها جميعا منتشرة فى الطبيعة انتشارا يصعب جدا أن يكون مجرد صدفة. ونحن نذهل لتغريد العصافير، ونسق الألوان فى الأزهار (هل للحشرات حس جمالى؟)، ولتناسق ألوان ريش الطيور، وللجمال الذى لا يضاهى فى ورقة القيقب، ولونها عميق الحمرة، وعروقها الزرقاء، وأطرافها الذهبية.

فلو فرضنا أن جمال الكون أو جمال الطبيعة كان صدفة للزم أن يكون الجمال نادرا. ولكن الواقع خلاف ذلك. فالطبيعة تزخر بالجمال. يقول ديفيد بوم: إن «كل ما يمكن العثور عليه فى الطبيعة، تقريبا، يتبدى عن شىء من الجمال سواء فى الإدراك الفورى له وفى التحليل الفكرى». من ذلك مثلا أن جميع الحيوانات تقريبا تكشف عن شىء من التناسق، كما يشير إلى ذلك بورتمان. بل إن بعض أجناس الحيوان تكشف عن درجة مذهلة من التناسق تضاهى بها الآثار الفنية الرائعة.

ويكشف المجهر عن الهندسة الخفية لتركيب الخلايا فى ورقة عشب واحدة. وفى صالات العرض والمتاحف صور لأجزاء من النبات التقطت لجمالها الفتان بالمجاهر العادية وبمجاهر المسح الإلكترونى.

وفى داخل الخلية الحية تكشف الأشعة السينية عن تركيب جزئ الـ (DNA) وهو قالب الحياة - الذى يصفه جيمز واتسن المشترك فى اكتشاف تركيبه بأنه جميل. وأخيرا، فإن المكونات الذرية لهذا الجزىء ذاته تفهم بلغة الجمال المقصود وليس الصدفة. . وجمال الكون كله ومظاهر الإبداع فيه ناشئ عن وعى وإدراك. . ولتوضيح ذلك :

تأمل، للحظة قصيرة، حِرَفِيًّا يصنع سكينا لتقطيع الخبز الشخصى لاستخدامه. فمن الضرورى أنه ستكون للسكين الجديدة

شفرة، إذ إنه من دونها لن يستطيع قطع الخبز. أما تصميم المقبض المزخرف والمرصع فلا نستطيع عزوه إلى الضرورة لأن السكين قادرة على أن تقطع الخبز بنجاح دون حاجة إلى أية زخرفة على الإطلاق. والحِرَفِي يختار بمحض إرادته أن يزين أداته بالزخارف. ففى وسعه أن يضيف الزخارف أو لا يضيفها. فإذا اختار إضافتها توافرت له تشكيلة غير محدودة من التصاميم ينتقى منها ما يشاء. فزخرفة السكين تقبل البدائل؛ ومع ذلك فهناك سبب لوجودها وهو أن الفنان لا يريد سكينا نافعا فحسب، بل سكينا جميلا أيضا. فالزخرفة إذن ليست نتاج الصدفة ولا الضرورة، بل هى تصرف يتسم بحرية الاختيار. والعقل الذى يختار بحرية، إذن هو الطريق الوسط بين الصدفة والضرورة.

وعلى النحو ذاته، لما كان الجمال فى الطبيعة بالغ الوفرة فلا يمكن أن يكون ناشئا من الصدفة، إذن لابد له من سبب. ولكن هذا السبب لا يمكن حصره فى نهج واحد، إذ ليس من ضرورة مطلقة تفرض أصلا وجود الجمال فى الحيوان والنبات والجماد. وعلى ذلك يبدو أن الجمال المشاهد فى الطبيعة ناشئ من علة لا تحكمها الضرورة، ولكن لديها مع ذلك سبب يفسر تصرفها. وهذه العلة هى عقل، ومن ثم فإن هناك مسئولا عن جمال الطبيعة. وهذا العقل القائم وراء الطبيعة يطلق عليه كل الناس اسم «الله».

رأينا كيف أن النظرة الإيمانية الجديدة تجمع مجددا بين العلوم والفنون الجميلة من خلال فهم الجمال. كما أن الشعراء، في تأملهم جمال الطبيعة، يدركون بدروهم أنه من صنع عقل ما. ومن أمثلة ذلك أن «ثورو»، إذ يرى أن الجمال لا يمكن أن تفسره الضرورة، إذ إن الفنان المؤمن يبحث وراء الطبيعة، فيقول: «السماء تمطرنا وتسقط علينا ثلوجا كالدرر. يا له من عالم عجيب هذا الذى نعيش فيه! أين متاجر الجواهر والحلي من ذلك؟ ليس هناك ما هو أجمل من ندفة ثلج أو قطرة ندى. أكاد أقول إن صانع هذا العالم تتجلى براعته في كل ندفة ثلج أو قطرة ندى يسقطها علينا. ونحن نظن أن الأولى تتماسك بطريقة ميكانيكية وأن الأخرى تسيل فتتهاوى بكل بساطة، ولكنهما فى الحقيقة حصيلة حماس، ونتاج نشوة، أضيفت عليهما اللمسات الأخيرة بأقصى مهارة من مبدعها».

والبشر يلحظون يد الله في ندفة الثلج وفى غروب الشمس وفى حقل الأعشاب وعظمة الجمال وجلاله يحملان توقيع الله الذى لا شبهة فيه. يقول «توماس مان» الجمال وحده إلهى ومرئى فى آن واحد معًا. أما «إمرسون» فيقدم لنا النصيحة التالية: «إياك أن تفوّت أى فرصة لمشاهدة أى شيء جميل لأن الجمال خط بيد الله. إنه قداس يقام على جانب الطريق. رحّب بالجمال فى كل وجه حسن، وفى كل سماء صافية، وفى كل زهرة جميلة، واشكر الله على ذلك».

وتعبر «إليزابيث باريت براوننغ» عن هذا الإحساس ذاته فى بيتين من الشعر قصيرين:

الله ذاته هو أفضل شاعر

والحقيقة هى أنشودته

وهكذا ففى النظرة الجديدة نجد أن أصل الكون وبنيته وجماله تفضى جميعا إلى النتيجة نفسها، وهى أن الله موجود. وهو سبحانه جميل يحب الجمال.

ويقول أ. سعيد حوى فى كتابه «الله جل جلاله»:

«كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام، مخططة أجمل تخطيط وإبداع يقلد ولا يصنع تجده فى أروع ما يكون فى الأزهار لرشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه، وإنك لتجد فى كل زهرة إحساسًا جديدًا، وهى بديعة عندما تجتمع جنسا واحدا، ورائعة عندما تكون أجناسا، فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار، كلها إبداع عجيب، منفردة أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة.

والوادى الأخضر والنهر والأشجار الباسقة، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج، أو التى تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة فى الصحراء، والتتابع المنسق الفاخر لأمواج المحيط

وتلاطمها على أرض الشاطىء، والهدير والخرير والصفير والزفيف والحفيف، وصوت الرعد، ولمعان البرق. . أليس ذلك كله جميلاً وبديعا ومبهجًا حتى عندما يخيف؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الأرض هاربة منك أو مذللة بين يديك، ألوانها المتناسقة، أشكالها الزاهية، نقشاتها الفاتنة، تصميمها الجميل، أصواتها العذبة، حركاتها الفاتنة، فى كل ريشة منها جمال، وفى كل شعرة فيها رونق، وفى جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض يرتفع أو ينخفض؛ ما يجعل القلب يمور شعورًا حبًّا واغتباطا».

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة، والخطوط البللورية للعناصر والمركبات، وألوان العناصر منفردة أو مركبة، تركيباتها أجزاء وكتلاً، كروية الأرض، وسحب المريخ، ووجه القمر، وكلف هذا الوجه، كل ذلك جميل، جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة، وفى الجمال جمال، وفى الغنم جمال، وفى البقر جمال، وفى الماعز جمال، وفى الكلب جمال، وفى الهرة جمال، وفى كل ما خلق الله جمال، فى مراحه ومغداه، فى سكونه وممشاه. فى حركات السمك وتموجات حشائش البحر فى الأعماق، أو تموجات حشائش البر إذا مر النسيم، فى العظام المكسورة التى تشفى، وفى الجرح الذى يلتئم بعد إذ تمزق لحمه، فى دورة الدم، فى القلب الذى يتحطم، ثم ينجبر بعد كسر، فى حبوب اللقاح، فى النحل تمتص رحيق الزهر، فى تقبيل

الفراشة ميسم الزهرة، فى انتقالها إلى ميسم آخر، فى نقلها حب اللقاح إلى زهرة أخرى، فى التلقيح، فى التزاوج، فى انجذاب القرين إلى قرينه، فى كل شيء إبداع.

إن التناسق الذى نراه فى كل مخلوق، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض، انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء فى محله، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة : ٧).

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١١٧).

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ (فاطر: ١٣).

إن هذا الإبداع من أجلك عزيزى القارئ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(لقمان: ٢٠). ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).. إنه من أجلك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها، وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع، وحب الجمال، فكان ذلك من أروع الإبداع لو تدبر الإنسان وتأمل فى آيات الله فى الكون وتعرف على الخالق بديع السموات والأرض.

لقد أعطى الله الإنسان قوة الفكر والتصور وبداهة الشعور، فصار يتذوق الجمال، ويسرح بخياله من البداية إلى النهاية، ويتذكر

بسرعة البرق آلافا من لوحات الوجود، ويخترق بخياله حجب السموات والأرض، مع الإدراك الذى يجعله يتفاعل مع كل شىء، فيهوى ويحب، ويمل ويبغض، ويصمم تارة للبناء وتارة للهدم، فيجعل الحياة فنًّا والمعنى جهازًا.؟ إن فى ذلك كله إبداعًا سواء فى ذلك باطن الإنسان أو ظاهره، أو ما يحيط به، وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع، وصورة القبيح فيبدع، وفى كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعًا وفى كلتيهما يكون محسنا، وفى الكون جميل وأجمل وقبيح وأقبح ولكنْ فى ذلك كله إبداع لتعدد الصور فلا يفوتك عزيزى القارئ أن ترى الإبداع وألاّ ترى المبدع.

حكى أن أعرابيًا سئل عن دليل الألوهية فقال: «البعرة تدل على البعير، وأثر قدم السير يدل على المسير، وأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، أفلا يدلان على اللطيف الخبير» وكما يقول الشيخ طنطاوى جوهرى:

إن من تصفح هذا الكون فرأى نسمات الأسحار وتغريد الأطيار وجمال الأزهار ومحاسن الأشجار وبهجة الأنوار، يدعوه ذلك الجمال الباهر والحسن الظاهر إلى الاعتبار بباطنها والخروج عن مضيق المادة إلى فسيح الروح. فإذا أبصرت أيها الإنسان شكلا حسنا مشرق البهجة جميل الطلعة آخذًا بمجامع قلبك فانظر لفؤادك فهو الميزان،

فإن رأيته وقف على ظاهر الجمال ولم يغص فيما هو أدق وأرق فاعلم أنه لم يزل في المحسوسات مع الحيوانات، وإن رأيته اعتبر هذا الجمال سلما إلى ما هو أرقى منه كالتفكر فى دقائق معانيه وحسنه الباطن فاعلم أنه ارتقى إلى أوج العقول وكل عاقل تعتريه هاتان الحالتان فى أطواره، فمن كانت أغلب أحواله فى الوجهة الثانية فهو إلى الدوائر العقلية الروحية أقرب وإلى الملائكة أدنى.

وأعلم أن الجمال فى هذا الكون لم يكن مقصودًا لذاته بل وسيلة إلى أمور وراءه أعلى وأجل، فالكواكب مثلا والتى هى أشرف ما يشاهد فهى زينه السماء، فقد جمل منظرها، وحسن رونقها، وابتهجت بها النفوس، وانشرحت بها الصدور، فبحث العقلاء عن سيرها فى بروجها وحركاتها فى منازلها لينتظم أمر المعاش، ثم إذا حولنا وجهة النظر إلى ما على الأرض من الزينة نراها بهذه الوجهة كذلك ألا ترى أن جمال الأزهار جعل بهجة لصغار الحشرات لتسرع إليه بحسن منظره الذى شاقها فتشرب من رحيقه المختوم الذى يرى فى أسفل الزهرة، وهناك يحصل إلقاح الإناث من الذكور بانتقال الحشرة إلى زهرة أخرى كما هو موضح فى علم النبات، فأراد الحيوان بهجة النظر وأراد ربك المنفعة العامة كإحالة العسل فى باطن النحل مثلا، وإلقاح إناث النبات من ذكورها، ويؤيد ما قلنا أن الزهر الذى لا يحتاج فى إلقاحه إلى صغار الحشرات لا يكون فيه

ذلك الجمال ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨)، ومن هنا نفهم قوله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحجر: ٢١). فما أحكم القران وأتقنه فالله سبحانه وتعالى كما أتقن ملكه وأحكم نظامه أحكم كلامه وجعله رمزًا إلى مصنوعاته.

وسبحان الله العظيم فقد تشابهت صنائعه ولم يحصل بينها تفاوت لا من حيث الوظيفة ولا من حيث المظهر الجمالى فزرقة السماء وخضرة النبات متقاربتان بل متشابهتان، والأضواء فى كلتيهما مشرقة متلألئة متوهَجة فكأن الزرقة والخضرة أخذتا على الأنوار المشرقة والجمال البهيج عهودًا ومواثيق ألا تفارقهما فتزدانا بها، وسبحان الله ما أجمل رونق الأشعة فى أكناف هذين اللونين الجميلين جمال على جمال وبهاء على بهاء فلنتأمل هذه الآيات فى كون الله المنظور أو فى كتاب الله المسطور لأنها رسائل إلهية كما فى قول الشاعر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو قرأت سطورها ... ألا كل شىء ماخلا الله باطل

فليس الجمال فى الطبيعة أو فى العقل إلا من معطيات الله، وإلا فمن الذى وضعه هنا أو هناك. . حتى الإنسان وهو يبدع يقلد

الله فى التناسق والتماثل والتناسب فى الطبيعة، والإنسان وهو يبدع يقلد الله فى متطلبات الجمال فيستحدث التناسق الحى بين الألوان والأنغام والأضواء والنظرية العلمية التى يحاول الوصول إليها نقلا عن مبدعات الله التى يكون الجمال فيها دليلا لوجوده سبحانه الصانع المبدع.

□□□


الفصل الرابع
ظاهرة الإرادة الإلهية

هل الكون صدفة أم قصد إلهى :

الصدفة تناقض الإيمان وتنفى وجود الخالق، ولكن العلم الحديث وقوانين الإحصاء الرياضى أثبت انهيار دعوى الصدفة، والاعتراف بوجود الله، ولبيان ذلك نحضر كيسا به مائة قطعة رخام منها ٩٩ قطعة سوداء وواحدة فقط بيضاء، وعند هز الكيس وسحب قطعة واحدة منه فإن فرصة سحب القطعة البيضاء واحد فى المائة، وفرصة سحبها مرتين متتاليتين واحد إلى ١٠,٠٠٠ وإذا أردت سحبها ثلاث مرات متتالية دون خطأ فإن فرصة النجاح تقل إلى واحد فى المليون. . وهكذا تقل الفرصة إلى أن تصبح صفرا. . .

وهناك مثال آخر بأن تحضر عشر ورقات من أوراق الكوتشينة عليها أرقام من واحد إلى عشرة وضعها غير مرتبة ومقلوبة وحاول أن تسحب الورقة رقم واحد فإن الفرصة تساوى ١ : ١٠ وأما فرصة سحب الورقتين رقم واحد ورقم اثنين متتاليتين فتساوى ١ : ١٠٠ وهكذا تصبح فرصة سحب الأوراق العشر على الترتيب بنسبة واحد إلى عشرة بلايين علاوة على الزمن الذى تحتاجه للنجاح. . . ! ! ولو فرضنا أنك نجحت فى هذه اللعبة من أول مرة فإن زملاءك سوف يتهمونك حتما بأنك رتبت الورق قبل البدء. . . وقد يؤيد بعض

المجادلين احتمال الصدفة ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤). وهناك مثال آخر يقضى على قانون الصدفة كما يسميه البعض استخدمه د. موريسون والعلماء الأمريكيون أصحاب كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» وعرضه الشيخ نديم الجسر فى أسلوب حوارى أخاذ بعبارة مشرقة فى كتابه «قصة الإيمان» كما يلى:

لو أخبرك أحد أن ٥٠٠,٠٠٠ حرف مفرقة فى صناديقها وجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها البعض وبعثرتها وخلطتها فكونت بالصدفة ١٢٥,٠٠٠ كلمة بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا، لتكوين كتاب كامل من ٥٠٠ صفحة ينطوى على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها فهل تُصدق ذلك؟ والجواب على هذا السؤال هو بالبداهة: استحالة مطلقة لأن الصدفة لن تتوافر لعدم وجود العقل والإرادة فى هذه الحروف لتحرك نفسها بهذا النظام. . . هذا فى كتاب المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة فما بالنا بكتاب الله المفتوح «أى الكون العظيم وكلماته اللانهائية العدد التى يقول عنها الخالق والمدبر والمنظم جلت قدرته:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الكهف: ١٠٩).

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ

أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ (لقمان: ٢٧).

وبرغم أن كلمات الله فى الكون لا نهائية فإنها منظمة ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨). فالكون يخضع لنظام يعترف به كل العلماء على اختلاف مذاهبهم، ولكن الملحدين منهم عاجزون عن إدراك منظم ومدبر الكون ويخدعون أنفسهم ويقولون إن كل هذا النظام صدفة، فيقول أحدهم ويدعى هكسلى: «لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير؟ فكذلك الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء! ظلت تعمل فى المادة لبلايين السنين؟». هذا كلام يدل على جهل مؤكد وليس معقولا أن انفجارا عشوائيا أو زلزالا فى مطبعة يؤدى بالصدفة العمياء إلى إنتاج معجم ضخم أو دائرة معارف، وكأن النظام وليد الفوضى. وهل من المعقول بأن الكون كله بما فيه من مادة وطاقة وتحركات وتركيبات وتفاعلات، وما به من نبات وحيوان وإنسان وليد الصدفة، وكيف يخدع الإنسان نفسه ليعطى للصدفة العمياء علما محيطا وإرادة كاملة وقدرة مطلقة تعلم وتريد وتقدر؟ إن القلم الذى أكتب به الآن والذى أعده الصانع لذلك لو حاول إنسان أن يقنعنى بأنه وليد الصدفة العمياء وليس الصانع

العاقل ما صدقته، فما بالك بالكون كله وما فيه من إحكام قائم على العلم والإرادة والقدرة الإلهية، فالصدفة العمياء أو الطبيعة العمياء لاتفسر وجود الكون، بل إن العلم يعجز عن إدراك حقائق الأشياء، فاعترف أخيرا بالغيبيات وبهذا فإن نشوة علماء الإلحاد المادى لم تدم طويلا لأن القرن العشرين أقام جسرا بين العلم والدين رغم وجود الملحدين وصدق الله تعالى:

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (عبس: ١٧).

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (يس: ٧٧).

لقد آن الأوان فى عصر العلم أن يرفع الإنسان رأسه عن بئر الصدفة أو الطبيعة وينظر إلى صانع الكون الذى بنى هذا الصرح العظيم ووضع أمام أعيننا فى كل ذرة منه قانون تشييده ودستور إيجاده.

إن الطبيعة صنعة لا صانع، ونقش لا ناقش، وحكم لا حاكم ومخلوق لا خالق، ومفعول لا فاعل، وكل الظواهر التى نراها فى هذه الطبيعة أو فى هذا الكون تدل على أربع صفات وجودية للخالق وهى: العلم والإرادة والقدرة والحياة.. فهو سبحانه حى لا يموت وموجود لا بداية له فهو الأول، ولا نهاية له فهو الآخر، ولا ند له

فهو الواحد، ولا مشابه له فهو القدوس، ولا حاجة به لأحد فهو القيوم.. هو عز وجل متصف بالقدرة فهو قادر، وبالعلم فهو عليم وبالإرادة فهو مريد... والكون من آثار الله:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ٥٠).

هل الحياة صدفة أم قصد إلهى(*) :

إن فروع العلم كلها تثبت أن هناك نظاما وتدبيرا معجزا يسود هذا الكون، أساسه القوانين والسنن الكونية التى لا تتغير، فمن الذى سن هذه القوانين وأودعها كل ذرة من ذرات الوجود؟ ومن الذى خلق كل ذلك النظام والقوانين والانسجام؟ ومن الذى صمم وأبدع وقدر فأحسن التقدير؟ هل المنظم والمبدع هو الله الحكيم العليم الخبير القدير، أم الصدفة العمياء؟.

لقد لجأ الملحدون نتيجة لعجزهم وللغشاوة الموجودة على قلوبهم وأبصارهم وسمعهم إلى القول بالصدفة على اعتبار أن الصدفة نظرية رياضية تطلق على الأمور التى لا تتوافر فى بحثها معلومات قطعية.

ولقد أثبت العلماء حديثا أن الرياضيات التى أعطت للملحدين نكتة الصدفة هى نفسها التى تنفى أى إمكان رياضى فى وجود الكون أو ظهور الحياة بطريق الصدفة!

(*) الكون والإعجاز العلمى للقرآن، للمؤلف. دار الفكر العربى الطبعة الثالثة ١٩٩٦م .

وبتطبيق قانون الصدفة أو نظرية الاحتمالات على جزئ البروتين الذى يعتبر المركب الأساسى فى جميع الخلايا الحية، كانت النتيجة مذهلة!

إن عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد يبلغ ٤٠,٠٠٠ ذرة محصورة فى خمسة أنواع من ذرات عناصر الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت، وحيث إن عدد العناصر الكيميائية فى الطبيعة ٩٢ عنصرا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة بالصدفة لكى تكون جزيئا واحدا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطا مستمرا لكى تؤلف هذا الجزىء، ثم لمعرفة الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد بترتيب معين! ولقد قام العالم الرياضى السويسرى «تشارلز بوجين» بهذه الحسابات فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة ١ : $١٠^{١٦٠}$، أى بنسبة (١) إلى رقم عشرة مضروبا فى نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به، كما وجد أن كمية المادة اللازمة لحدوث التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزىء واحد هى أكبر مما يتسع له هذا الكون كله ملايين المرات! وأن الزمن اللازم لهذا التفاعل بالأسلوب العشوائى هو $١٠^{٢٤٣}$ سنة، أى أكبر من عمر الكون بلايين البلايين من المرات!.

هـذا كلـه لكـى يتكـون جـــزىء بروتينـــى واحـــد ميـــت يعجـــز الميكروسكوب عن رصده!

أما لكى يتكون الـبروتوبلازم الـذى يعتـبر أدنـى صـورة مـن صـور الحياة؟

أما لكى تظهر الصور المعقدة للحياة من النبات؟

أما لكى تظهر الصور الأكثر تعقيدا من الحيوان؟

أما لكى يظهر الإنسان؟

فـهذا أمـر لا يتخيلـــه عقـــل ولا منطـــق أن يحـــدث بالأســـلوب العشوائى. والنتيجة هى أنه من المستحيل تماما تفسير وجود الحيـــاة بقانون الصدفة، ولا مفر من الاعـتراف بوجـود القـدرة الإلهيـة التـى صممت الهندسة الوراثيـة فـى كـل خليـة حيـة ويلـهث العلم لفك رموزها وفهم مدلولاتها فجزئ DNA تبين حديثـا أن الخيـط الواحـد منه عبارة عن عقـل إليكـترونى حمـل مـن المعلومـات مـا يحتـاج إلى ألف كتاب لتسجيله! ولم يصل العلماء إلى فك ألغاز ملايين الجينات أو حاملات الوراثة التى تبلـغ فـى خليـة الإنسـان ٦٠٠ مليـون رمـز على هذا الخيط فـــى الخليـة الواحـدة وهكـذا يتجلـى الله فـى عصـر العلم، وصدق الله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (الذاريات: ٢٠ - ٢١).

إن الله وحده هو القادر على خلق هـذا الجـزىء البروتينى DNA فورا علاوة على منحه أسرار الحياة التى لم يتوصل العلم لها إلى الآن بالإضافة إلى تجميع هذه الجزيئات بالبلايين لخلق الكائنـات الحيـة من النبات أو الحيوان، وصدق الله تعالى فى قوله:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل: ٤٠).

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم: ٢٧).

وقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الزمر: ٦٢).

□□□

والآن وقد وضح لنا انهيار قانون الصدفة فى خلق الحيـاة، ننتقـل إلى ادعاء داروين فى نظريته للتطور بأن الإنسان قد انحدر من القـردة العليا أو على علاقة بها من خلال الأجداد!

ولقد لاقت هذه النظرية تأييدا متزايدا (فـى القـرن المـاضى) لـدى كثير من العلماء باعتبارها الوسيلة المنطقية الوحيدة فى نظرهم لتفسير

عمليـة الخلـق. وتتلخـص الادعـاءات التـى جعلـت هـؤلاء الملحديـن يتمسكون أو يتخيلون صحة هذه النظرية فيما يلى :

أولا: أن الحيوانات تضم أنواعا تبدأ بحيوانات وحيدة الخلية إلى حيوانـات متعـددة الخلايـا. وأن هـذه الأنـواع تختلـف مـن حيـث صلاحيتها وكفاءتها ودرجات رقيها.

ثانيا: أن هذه الأنـواع لم تظهر للوجـود فـى وقـت واحـد وإنمـا ظـهرت الأنـواع البسـيطة أولا ثـم بعـد ذلـك ظـهرت الأنـواع الأكـثر تعقيدا.

ثالثا: التشابه الموجود فى مختلف الأنواع، فالطير يشـبه السـمك والقرد يشبه الإنسان وغير ذلك من تشابهات فـى النظـام الجسمانى بالرغم من الاختلافات النوعية مما يوحـى فـى نظرهـم إلى أن جميـع الحيوانات بما فيها الإنسان أسرة واحدة!

رابعا: حدوث فروق فى أولاد الأم الواحدة من أى حيـوان يعنـى فى نظرهم أن الأنواع المختلفة لم توجد على حدة، بل إن هذه الفروق تكبر بعد ملايين السنين وتتطور نحو الأفضل فى الأجيال التالية وفقا لما أسموه قانون الانتخاب الطبيعى! وظاهرة البقاء للأصلح، أو بعبارة أخرى فإن الشياه ذات الأعناق الصغيرة تطورت إلى الزُّرَافِـىّ - جمـع زرافة - ذات الأعناق الطويلة! وأن الإنسان جيل أرفع للحيوان خرج

من بطون القرود! وبالتالى فإن الإنسان جاء عن طريق عملية تطور من الشرارة الأصلية للحياة!

والآن وقد انقضى أكثر من مائة عام على نظرية داروين وتقدم العلم تقدما كبيرا، نسأل هؤلاء الماديين الملحدين المدافعين عن نظرية داروين سواء أكانوا أنصار الصهيونية أم الشيوعية العالمية رأيهم فيما يلى:

أولاً: يوجد فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بنيويورك حصان أثرى ذو ثلاث أصابع وهو حيوان صغير كان لا ريب سريع العدو كما يقول البروفوسير كريسى موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك. وإذا كانت هذه الأصابع قد تطورت فى ساق الحصان الحالى إلى ما نسميه حافرا. وأن هذا التطور البسيط قد تطلب ملايين السنين. فلنقدر إذن الزمن الذى تطلبه الإنسان حتى تطورت يداه وعيناه وذهنه وغير ذلك من التركيب الموجود فى القرد إلى التركيب المدهش الذى وصل إليه الإنسان!

ولقد حسب العلماء الزمن اللازم لنشوء الحياة الراقية ثم الإنسان تبعا لتلك النظرية فوجدوا أن هذا الزمن يساوى عشرات أضعاف عمر الأرض مما يؤكد بطلان هذه النظرية!

ثانيًا: إذا كان التطور يعتمد أساسا على الصدفة ويتحاشى الخلق المباشر المقصود كما يدعون، فما رأى أتباع داروين الذين وصلوا إلى

هذا الحد من الإلحاد المادى فى أن الزمن اللازم لتكوين جزىء بروتينى واحد عن طريق الصدفة محسوبا بواسطة علماء الرياضة يقدر بزمن أكبر من عمر الكون بلايين المرات، علاوة على أن هذا الجزىء ميت خال من الحياة. . فما رأيهم لو حسبنا الزمن اللازم لكى تظهر الصور المعقدة للحيوانات ثم للإنسان عشوائيا! علاوة على عجز العلم عن معرفة سر الحياة!

ثالثًا: أن أدلة نظرية داروين ليس لها أى أساس تجريبى فلم يحدث مثلا أن أجريت تجارب فى إحدى حدائق الحيوان فخرجت الزُّرَافِىّ من بطون الشياه!! وبهذا فإن هذه النظرية قائمة كما يقول دعاتها على تفسير بدون براهين. فيقول السير آرثر كيث الملحد المعروف المعاصر: «الارتقاء غير ثابت ولا يمكن إثباته. وبرغم هذا نحن نؤمن بهذه النظرية الداروينية لأن البديل الوحيد أمامنا هو الإيمان بالخلق المباشر بواسطة الإله وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه» ومن هذا الكلام نستطيع أن نستنتج إلى أى مدى من الضلال وصل هؤلاء الكفار لكى يتحاشوا الاعتراف بوجود الله. ألا ساء ما يحكم الكافرون الماديون الجدليون.

رابعًا: أثبتت الأبحاث الحديثة أن أسلاف الإنسان والقرود كانت متداخلة، لهذا فإن الإنسان ليس منحدرا من القردة، بل نشأ طفرة واحدة كما هو على الأرض.

خامسًا: إن الفوارق الكبيرة بين الإنسان والقرد تثبت أنه لا صلة توالدية بين الإنسان والحيوان. هذه الفوارق (التى تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهى عند الأخلاق وبينهما ما يتمتع به الإنسان من فكر وعلم وإرادة!) جعلت بعض أنصار داروين واسمه «كوالدس» يعترف بأن «الارتقاء والانتخاب الطبيعى لداروين لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأسا» ويقول العالم «فرخو» إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقا بعيدا فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن نتفوه بذلك... وبهذا تراجع الداروينيون أنفسهم.

يقول الدكتور «إدوراد لوثر» أستاذ الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو: إن الانتخاب الطبيعى الذى يمثل أحد العوامل الميكانيكية للتطور لا يستطيع أن يخلق شيئا، وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التى تسلكها بعض الكائنات فى سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة. أما الأنواع ذاتها التى يتم فيها هذا الانتقاء فإنها تنشأ من طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها». وهذه القوانين لا تسير على غير هدى، ولا تخضع مطلقا للصدفة العمياء كما يتوهم الملحدون الماديون، وعلى ذلك فلا مفر من التسليم بأن هناك حكمة وتدبيرا وراء الخلق ووراء القوانين التى توجهه، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ (المؤمنون: ١٢ – ١٤).

كما يقول جل شأنه :

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ (السجدة: ٦ – ٩).

حقا لقد خلق الله الإنسان خلقا جمع بين المادة والروح، فالإنسان جسم مادى وروح شفافة، جسم مشدود إلى الأرض، وروح تتطلع إلى السماء، جسم له دوافعه وشهواته، وروح تسمو بـه نحـو الله، جسم له مطـالب الحيـوان وروح لهـا أشـواق الملائكـة. ونفـس لهـا طبيعـة مزدوجة تحتوى على معنويات الخير والشر والتقوى والفجور!

وإذا بحثنا فى جسم الإنسان نجد العديـد مـن التوافقـات المذهلـة والتنظيمات العجيبة المدهشة التى تؤكد أن الإنسـان لم ينشـأ نتيجـة

صدفة عمياء، بل هو من صنع قوة عاقلة جبارة تملك القدرة على التدبير والتخطيط، وهذه القوة هى قوة القصد الإلهى.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، أستعرض فيما يلى بعض هذه التنظيمات:

١ - خلايا أجسامنا دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم أو لتعويض ما يفقد أو يموت بين هذه الخلايا، بينما الخلايا العصبية لا تنقسم لأنها لو انقسمت لحدثت كارثة مروعة حيث تتلاشى جميع معالم الذاكرة فى الخلايا العصبية للمخ!

٢ - إذا نظرنا إلى عضلات الإنسان نجد أن أقوى العضلات هى عضلات الرحم عند الأنثى لتدفع الجنين ليخرج من بطن أمه، وتلى عضلات الرحم عضلات القلب التى لابد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلا ونهارا لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول فى بعض الأحيان لأكثر من مائة عام!

٣ - إن كل خلية حية تتكون من مادة عجيبة تدعى البروتوبلازم، وبداخلها أجسام دقيقة تحمل عوامل الوراثة تعرف بالكروموسومات، عددها ثابت فى خلايا كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، وهى فى خلية الإنسان ٤٦ كروموسوما، وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا، فإن

كل خلية جديدة لابد أن تحتوى على العدد نفسه من الكروموسومات، وهى ستة وأربعون؛ إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنسانا. ويشذ عن هذه القاعدة الخلايا التناسلية، إذ عندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين الحيوان المنوى فى الذكر أو البويضة فى الأنثى. فإن عدد الكروموسومات الناتجة فى كل خلية تناسلية يصبح نصف هذا العدد أى ثلاثة وعشرين كروموسوما فقط! بحيث إنه عند التقاء الحيوان المنوى بالبويضة تتكون أول خلية فى جسم الجنين وتنضم الكروموسومات ليعود العدد الأصلى وهو ستة وأربعون كروموسوما!

٤ - من المعروف أنه إذا حدث جرح فى أجسامنا فإن الذى يندفع من الأوعية الدموية المجروحة لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح ليوقف استمرار تدفق الدم من الجرح، ولولا هذا التجلط لظل النزيف حتى الموت!

٥ - إن المعدة فى الإنسان تمثل أعظم معمل كيميائى ينتج ذاتيا (أوتوماتيكيا) مواد كيميائية أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان! فالمعدة تقوم تلقائيا بتحليل ما نتناوله من أطعمة على اختلاف أنواعها وتجهزها من جديد، وتقوم بتصنيفها وتوريدها باستمرار إلى الدم ومنه إلى كل خلية من بلايين الخلايا حسب احتياج هذه الخلايا وتخصصاتها لتكوين العظام أو الأظافر أو اللحم

أو الشعر أو العينين. . الخ. كما تحتوى المعدة على جهاز كيميائى دفاعى لمهاجمة الجراثيم المعادية وغير ذلك من تنظيمات رائعة!

٦ - إن الأذن البشرية تمتاز بمواصفات مدهشة أذهلت العلماء، فالأذن عضو معقد بالغ الحساسية يقوم بتحليل الأمواج الصوتية بمنتهى الدقة إلى مكوناتها وينقلها إلى المخ فى صورة تيار كهربى يسرى فى العصب السمعى إلى مركز خاص فى المخ فيشعر الإنسان بكل صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الأشجار. والأذن البشرية لا تستجيب إلا لمدى معين من الذبذبات التى يتراوح عددها فى الثانية الواحدة أى ترددها من ٢٠ إلى ٢٠,٠٠٠ ذبذبة/ ثانية، حتى ينعم الإنسان بالهدوء ولا يسمع الموجات تحت أو فوق السمعية التى لو استجابت لها أذن الإنسان لأصبحت حياتنا ضجيجا لا ينقطع ولهذا حجب الله عنا هذه الترددات رحمة بنا وبعقولنا!

٧ - إن العين البشرية بالغة التعقيد، تتكون من عدسة تقوم بتكوين صورة على الشبكية بمساعدة عضلات العين التى تنظم تلقائيا انحناء العدسة لتغيير قوتها حسب بعد المنظر! وينفذ الضوء للعين من خلال بقعة صغيرة فى مقدمة العين تسمى القرنية، ويقع فيما بين القرنية والعدسة حائل ذو ثقب هو حدقة العين التى تتخذ ألوانا مختلفة للأشخاص المختلفين، ويسمى هذا الثقب بإنسان العين، وهو يتسع ويضيق بطريقة تلقائية وفقا لشدة الضوء الذى تتعرض له

العين، فإذا كان الضوء قويا ضاق إنسان العين ليمنع الوهج الشديد من الإضرار بالشبكية، وإن كان الضوء ضعيفا اتسع إنسان العين ليدخل ضوءًا أكثر يزيد من حساسية العين للرؤية! والشبكية التى تستقبل الصورة تتكون من عدة طبقات هى فى مجموعها ليست أكثر سمكا من ورقة رفيعة، وتتكون الطبقة الداخلية للشبكية من أعواد ومخروطات عددها يصل إلى ١٢٥ مليون عود! و ٧ ملايين مخروط! ، وقد نظمت جميعها فى تناسق محكم بديع، ويعتقد العلماء أن الأعواد حساسة للضوء الأبيض، أما الشعيرات المخروطية فهى ثلاثة أنواع يتخصص كل منها فى الاستجابة لألوان معينة كالأحمر أو الأخضر أو الأزرق. وينتشر خلف الشبكية حوالى المليون من خويطات الأعصاب المؤدية لنقل الصورة إلى مركز الإبصار فى المخ! والعين البشرية لا تستجيب إلا لمدى معين من الأمواج الضوئية تدعى الضوء المرئى، فهناك ضوء غير مرئى لا تراه العين مثل أمواج الراديو والرادار والأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية والسينية وجاما!

ويمكن مع الفارق تشبيه العين بآلة التصوير المتواضعة التى صنعها الإنسان، فعدسة الكاميرا تمثل عدسة العين، وفتحتها تقوم بعمل إنسان العين، والفيلم الفوتوغرافى الحساس يمثل الشبكية. وحيث إن الكاميرا لابد لها من مصنع يصنعها، فما بالك بالعين البشرية التى تفوق الكاميرا دقة تركيبا وإحساسا!.

ولا يتسع المجال لذكر ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة في جسم الإنسان والتي تعجز عن الإلمام بها عقول العلماء والأطباء.

وإذا كان احتمال وجود الصدفة في حالة سحب عشرة أرقام بترتيب معين هو واحد في عشرة بلايين كما تقول العلوم الرياضية، فإن احتمال الصدفة في حدوث ملايين التنظيمات في وقت واحد في جسم الإنسان يصبح من المستحيلات!.

ولا يتسع المجال أيضا لذكر التنظيمات الموجودة في كل كائن حي في الحيوانات والنباتات، ولو لم توجد جميع المخلوقات منذ البداية على نحو من التصميم الدقيق المقصود لما استمرت الحياة، مما يدل على إفلاس قانون الصدفة.

ومن المستحيل أيضا أن تتكرر المصادفة لتتخذ شكل ظاهرة عامة تسري على ملايين الكائنات الحية في النبات والحيوان والإنسان، سواء فيما يتصل بظاهرة مقاومة عوامل الفناء أو فيما يتعلق بالتركيب الخارجي والداخلي لأعضائها المختلفة التي تعمل في توافق عجيب وتعاون مذهل لاستمرار الحياة.

وحيث إنه ليس من المعقول مثلا أن تنشأ عمارة رائعة أو فيلا أنيقة من انفجار عشوائي في تلال من الأحجار والحديد والأخشاب والزجاج، فإنه يتضح لنا عجز الصدفة عن خلق المادة الحية أو إيجاد التعاون بين خلايا الجسم أو التشابه بين الكائنات.

وبرغم أن العلم قد تعرف على التركيب المادى لجسم الإنسان بعناصره ومركباته، وذلك بالتحليل الكيميائى، فإن العلم لم ولن يصل إلى سر الحياة! كما فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(الحج: ٧٣ - ٧٤).

والمادة بدون حياة كالمصنع بدون طاقة محركة، إن المادة غير الحية لا تستطيع أن تأتى إلى الوجود بهذه التصميمات الرائعة فى عالم الحياة، لأن الحياة وحدها هى التى تجبر العناصر والمركبات المادية على حل تركيباتها والاتحاد فى أشكال مختلفة لتكوّن إنسانا أو أسدا أو حمارا أو حشرة أو شجرة أو ميكروبا.

إن الحياة مصدر الوعى ومنبع الشعور، فبهجة الربيع مثلا ينعم بها الطائر والجواد والإنسان فيرسلها الطائر تغريدا، ويطلقها الجواد صهيلا وينظمها الإنسان قصيدة إذا كان شاعرا ويرددها ألحانا إذا كان موسيقارا. وقد يستقبل الإنسان خبرا سارا فيترجم عن سروره بتوزيع الصدقات وإطعام المساكين أو يترجم عنه بوليمة يدعو إليها

الأخباب والأصدقاء أو يتهلل وجهه وقد تسيل الدموع من عينيه، أو يكثر من الصلاة والدعاء والشكر لله، وهذه كلها تصرفات وتنظيمات الروح التى أودعها الله فى المادة الحية.

سر من أسرار الله يجعلنا ندرك صنعه فتبهرنا عظمته. فنحن نشعر أن الكائن الحى برغم أنه يتكون من ذرات وجزئيات مادية، إلا أنه يسيطر عليه شيء آخر غير ملموس، أعلى كثيرا من المادة ومختلف عن كل ما هو مادى ولا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه، هذا الشيء العظيم هو الروح، وصدق تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وكما فشل قانون الصدفة فى تعليل وجود الحياة، أخفق العلم فى البحث عن لغز الحياة، واعترف العلماء بوجود الله وتخاذل الملحدون.

ويقول أ. محسن أبو عقال فى كتابه(*).

يكثر القرآن من ذكر الدواب والإنسان ليذكر هذا الإنسان المقصود بالهداية بأنه: أتى عليه حين من الدهر لم يكن فيه شيئا مذكورا، ويستنتج من هذا استنتاجًا بديهيًا سهلا أنه(حادث) ليخرج من هذه

(*) خطوات إلى اليقين، الدار السعودية للنشر ١٩٨١.

البداهة الأولى إلى نتيجة بدهية ثانية وهى أن المادة التى حدث منها هـذا (الإنسان) لابد أن تكون حادثة لأنها قبلت (التغير) والقديم لا يتغير.

وبعد أن يقرر القرار أمر حدوث الإنسان والمادة والعالم على هذا الوجه السهل الواضح يسير فى طريق الاستدلال العقلى على أساس (قانون العلية) الذى تمليه بداهة العقول فيتساءل عن علة هذا العالم الحادث، وسببه ويعرض بأسلوب رائع من البيان الموجز الجزل كل الفروض المستحيلة التى يذكرها الجاحدون الملحدون المجادلون فى الله بغير علم ولا هدى، حين يقولون:

– إن العالم حدث من غير علة.

– أو أنه حدث من نفسه.

– أو أن الله والعالم شىء واحد.

– أو أن مادة العالم قديمة كقدم الله.

– أو أن الخلق حصل بالضرورة من غير إرادة.

فيقول لهم:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ① ﴾ (الإنسان: ١).

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ⑥⑦ ﴾ (مريم: ٦٧).

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الطور: ٣٥).

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨).

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الأحقاف: ٣).

فانظر كيف ينبه القرآن الكريم بهذا البيان الرائع عقول الناس إلى استحالة تلك الفروض التى يزعمها الملحدون استحالة بدهية.

وانظر كيف يدفع العقول إلى أن تطلب العلة الكافية والبحث عنها، والحكم بتوجب وجودها. وتوجب اتصافها بالصفات الكاملة (الكافية) لإحداث هذا العالم وخلقه.

وانظر كيف ينبهها للتفريق والتمييز بين الله (العلة) والعالم (المعلول) بالماهية والذات والصفات لاستحالة أن يكون (المعلول) هو (نفس العلة أو جزءًا منها). ثم انظر كيف يشير فى الآيات الأخرى إلى بطلان القول بخلق الله للعالم (بالضرورة) لتوجب اتصافه سبحانه (بالإرادة) التى بها وحدها اختار تحديد (الأجل) الذى أراد إحداث العالم فيه. . ولأن الخلق بالضرورة يؤدى إلى القول بقدم العالم والإنسان.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ (الإنسان: ١).

بلى. وهذا ما أثبته العلم بشأن الإنسان والحيوان خاصة والحياة عامة إذن هو حادث ومخلوق وممكن الوجود بقدرة الله وأمره لا واجب الوجود.

وكل شيء في ملكوت السموات والأرض هو حادث لأنه (شيء)، ولأنه مركب ولأنه (متغير) ولأنه (ممكن الوجود) ولأنه ليس (واجب الوجود).

فهل خلق من غير شيء. وحدث من غير (علة كافية)؟ هذا مستحيل كما يقول ليبنز وغيره من الحكماء وقد سبقهم القرآن بألف سنة فقال: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ (الطور: ٣٥).

أهو خلق نفسه. .؟ وهذا مستحيل أيضا. كما يقول ديكارت وباسكال وغيرهم. ولقد سبقهم القرآن فقال: ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

هل المخلوق والخالق شيء واحد.؟ وهذا مستحيل أيضا لأنه يؤلف تناقضا عقليا لاستحالة أن يكون المعلول هو نفسه العلة كما في الاستدلال القرآني بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (النحل: ١٧).

هل خلق الله العالم بالضرورة من غير إرادة. وهذا مستحيل أيضا لأنه يعطل صفة الكمال المتوجبة لله عقلا فالذى لا يريد ولا يختار

لا يكون إلها ولأن القول بالخلق بـالضرورة بـلا إرادة يجعـل الإنسـان قديما وقد ثبت أنه (حادث).

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨).

هل الكون أزلى مثل خالقـه كمـا زعـم البعـض..؟ وهـذا مسـتحيل أيضا لأنه لم يخلق بالضرورة بل بالإرادة الأزلية التى حددت وسمت وقت خلقه ولو كان خلقه بالضرورة لكان قديمـا، وهـو (حـادث) لـه أجل مسمى أى له بداية ونهاية:

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الأحقاف: ١٣).

هذا هو القول الذى لا ريب فيه، وكل ما سواه هو قـول واه واهـن مثل (بيت العنكبوت).

وهكذا يتناول القرآن الـذى نـزل علـى إنسـان أمـى فـى الجزيـرة الأمية جميع الحجج العقلية البالغة والبراهين الساطعة الدامغة التـى قضى العلماء والحكماء أعمـارهم حتـى توصلـوا إليـها وتلاقـوا عليـها بهدى القرآن وبـهدى الله الـذى أنـار عقولهـم فيقـرر بـأبلغ عبـارة، وأوجز إشارة وألطف تنبيه وأصدق تشبيه تقريرًا معجزًا يبرز فيه مـن تلك الحجج والبراهين ما يصلح لإدراك الجاهل ويخفى منـها تحـت الأعماق للأجيال ما لا يستطيع الغوص عليه إلا العالمون.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

ويقرر الله سبحانه وتعالى حقيقة خلق الإنسان فى قوله تعالى:
﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ (السجدة: ٧).

وقوله تعالى:
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

(غافر: ٦٧ - ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وتتناول آيات قرآنية كثيرة حقيقة خلق الكون وكيف أن هذا الكون الفسيح - كان مسخرًا كما لو كان يعرف أن الإنسان قادم. يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى

ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٩).

أى إن جميع المواد الخام فى الأرض تم خلقها منذ اللحظة الأولى فى المرحلة الدخانية قبل تشكيل السموات . . . وإن هذا الخلق كان بهدف ظهور الإنسان فيما بعد بدليل قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ (البقرة: ٢٩) ثم أعقب هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ (البقرة: ٣٠).

وبهذا فالكون كله مسخر لنا قبل قدومنا كما فى قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ١٣).

لقد أثبت العلم حديثا وخاصة بعد اكتشاف الكروموسومات وأسرار الهندسة الوراثية أن نظرية داروين للتطور فرض لم يقم الدليل عليه، فأصل الإنسان ليس قردا ونحن - المسلمين - نرفض هذه النظرية بلغة العلم ولغة القرآن. ولقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة كما فى قوله تعالى :

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ (العنكبوت : ١٩).

ولقد أمرنا سبحانه أن ننظر كيف وجدت الأحياء: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ (الغاشية: ١٧).

وعند الله علم اليقين: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ (طه: ٥١ – ٥٢).

والآن نبدأ فى دراسة ظاهرة الحياة لرؤية الله فيها وهو المقصود من هذه الدراسة، فنقول:

إن ظاهرة الحياة تدل على الله من ثلاثة جوانب:

١ – نشأتها وتنوعاتها.

٢ – الإنسان.

٣ – المبدأ الإنسانى فى خلق الله للكون.

كل جانب من جوانب هذه المعانى يدل على الله دلالة كاملة. ورغم كل المحاولات التى بذلت لإثبات أن هذه المعانى، يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها؛ فإن الحقيقة بقيت سافرة دائما «إن الله هو الخالق».

١ – نشأة الحياة وتنوعاتها :

إن الملحدين يقولون: إن الحياة بدأت خلية بسيطة، أو مجموعة خلايا، ثم بدأ التكاثر يعمل عمله، والتطور يعمل عمله، حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن، ولكن هل لهم على هذا من برهان؟ إن أكبر برهان – لو كان – هو أن يصنعوا الحياة؛ وخاصة أن العناصر التى يتركب منها الأحياء معروفة، ونسبها معروفة، وأجهزتها معروفة، وكل شيء فيها معروف، وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتوافر فى المصنع، فمهما كانت الظروف الأولى التى ولدت فيها الحياة يمكن أن نقدرها ونوجد ظروفا مثلها، ولكن حتى لو حصل هذا؟ أيقول الذى صنعها: إنها وجدت من غير شيء؟ أم يقول: إنها وجدت بعلم الإنسان وإرادة الإنسان، وقدرة الإنسان؟

إن الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره إلها مهما كان نوع هذا الإله: طبيعة كان، أو إنسانًا، أو صنمًا، أن يخلق هذا الإله المزعوم ذبابًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾(الحج: ٧٣)

ولقد سار الإنسان فى الطريق ليجرب حظه فى هذا التحدى، لا ليصنع ذبابًا، بل ليصنع ما هو أقل من الذباب؛ فماذا كانت النتيجة؟ فشل ذريع وعجز تام عن خلق الحياة. . ثم جرب حظه فى موضوع الاستنساخ فماذا كانت النتيجة؟ اعتراف بقدرة الله، فكل حى تنقسم خلاياه أزواجا أو فرادى لكن الأصل هو الخلية الحية التى تحتوى على السر العجيب الذى لا ندرى عن كنهه شيئا سوى آثاره وصدق تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

وفى الأرض بلايين البلايين من الأحياء؛ وفى كل واحد منها من العجب ما لا ينقضى، وهاك مثالا يبين كثرتها، يقول «لسترجون زمرمان» أخصائى التربة:

«أما التربة المنتجة الخصيبة فهى تربة حية، يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة، من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التى تعيش بهذه التربة الخصيبة إلى ما يقرب من ٢٠٪ من المادة العضوية التى بها، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية إلى بضعة بلايين فى الجرام الواحد من التربة».

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع، كل جنس وكل نوع له خصائصه، ومزاياه، وشكله،

وصورته، وطرق تغذيته، وطرق حياته، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص وكل تعقيدات الحياة.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام: ٣٨).

ولكل رزقة، وغذاؤه، وغريزته التي يبحث فيها عن الرزق، وأجهزته التي يهضم بها رزقه.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ (هود: ٦).

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود: ٥٦).

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (النور: ٤٥).

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

إن المنطق الواحد المعقول، أن الله الحي هو وحده خالق الحياة:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ ﴾ (النحل: ٢٠ - ٢١).

ولا يستويان فى منطق العقل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل: ١٧). ولا يستويان كذلك عقليًا: إنسان نسب الحياة إلى المصادفة، وآخر ينسبها إلى الله. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وتأمل بعد هذا فى هذه القصة، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق؛ لترى أن وراء سر الحياة الله، ابتداء وانتهاء، نشأة وأنواعًا، هذا المخلوق هو الأميبا: عندما نذهب إلى المعمل، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكى نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون: فتلك الأميبا تتحرك فى بطء، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق. بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر.

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان وحيد الخلية فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانًا جديدًا كاملاً. وبرغم أن انقسام الخلية لا يتم فى العادة إلا إذا لامستها خلية أخرى؛ فى عملية الزواج بين ذكر وأنثى فإننا نرى فى الأميبا خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج

الكائنات الكبيرة الأخرى فى أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها. ولاشك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة، مع ملاحظة أنه موجود فى كل مكان فى العالم، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد.

وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تنشطر خلية حية إلى نصفين، بطريقة التشريح الدقيق، بحيث تكون النواة فى أحد القسمين دون الآخر، فإن القسم الخالى من النواة يموت بعد قليل. وقد أخفقت جميع الجهود التى بذلت للاحتفاظ به حيًا، وعلى ذلك فإن النواة هى التى تنظم العمليات فى الخلية وتسيطر عليها، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة.

وهكذا فى الخلية التى تشكل أبسط حيوان، ترى قدرة الله كما تراها فى أعقد الأحياء فهل بعد ذلك مجال للشرك بالله؟ يقول سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ (الأعراف: ١٩١).

إن الكون مخلوق لا خالق، ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق، فقد أشرك بالله جهلاً وسفاهة.

فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله، ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله، وما فى الأحياء من عجب لا يعلل إلا بالله، وكل جزئية من هذا كله آية تدل على الله.

٢ - الإنسان :

الإنسان أعظم ما خلق الله، ولذلك كان أبـدع مـا يعـرف الله بـه، فبقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربــه، وبقـدر مـا يجـهل نفسـه يجـهل ربه، لذلك كانت الحكمة التى تقول: «من عرف نفسه عـرف ربه» من أصدق الكلمات التى صاغها عقل الإنسان.

وأهم شيء فى الإنسان، صفاته الأساسية التـي لا يمكـن تعليلـها إلا بأنها قبس من أمر الله، ثم أخلاق الإنسان، والصفـات الأساسية للإنسان: العلم، والإرادة والقدرة.

إن المادة لا تعرف نفسها، ولا تعقـل غيرهـا، والمـادة لا يمكـن أن يكون لها خيار، وقدرتها قدرة محـدودة بإطـار، أمـا الإنسـان فيعلـم ويريـد تبعًـا لهـذا العلـم، وقدرتـه تنفـذ علـى ضـوء هـذه الإرادة. إن استعداد الإنسان للعمل ظـاهرة مـن أعظـم ظواهـر الوجـود، الإنسـان وحده من هذه المخلوقـات التـى نراهـا، عنـده استعداد ليعـرف كـل شيء، ويحلل ويركب ويقـايس ويعلـل، ويقبـل ويرفـض، ويتصـور، ويستطيع أن يفكر حتى يعـرف مجـهولاً علـى ضـوء معلـوم، ويرسـم للحياة طريقًا أو طرقا، ويبنى حضارة أو يهدمها.

ويتبع ظاهرة العلم، ظاهرة التعبـير حـين يعـبر الإنسـان عـن كـل هـذا: تـارة أدبًـا، وأحيانًـا كلمـة، وأخـرى فلسـفة، وطـورًا منطقـا، وبهدوء أو بشدة، وبعاطفة أو بعقل.

إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن: ١ - ٤). ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (العلق: ٣ - ٥).

والمادة لا تريد، بل تخضع لإرادة، وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سننها. والحيوان إن كانت له إرادة فهى إرادة غريزة ضمن أطر معينة. إطار الحياة والموت، أما ما عدا هذا فهو فى بهيمة غامضة، لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد.

ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة، يرجح بها بين المتقابلين، ويختار من بين الضدين. كلامه بإرادة، وحركته بإرادة، وعمله بإرادة. إن الإنسان وحده هو الذى يملك حرية الاختيار. بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس. يختار الكذب فيكذب، ويختار الصدق فيصدق، ويختار الخراب فيخرب، والإعمار فيعمر. . طاقة هائلة من الإرادة، يرافقها طاقة هائلة من القدرة.

إنه بقدر ما أعطى الإنسان من طاقة إرادة، أعطى قدرة عظيمة، ومظهر هذه القدرة؛ إمكانية التسخير والاستفادة من كل شىء. إنه يستطيع أن يستنبت الأرض إذا لم تنبت، وأن يحصد إذا زرع، وأن يركب متن الريح والماء، وأن يأكل لحم الطير والسمك، وأن يستخرج من كل شىء ما ينفع نفسه، وأن يترك من كل شىء ما يضره.

يقول أ. سعيد حوى في كتابه «الله»(*):

إن علم الإنسان، وإرادة الإنسان، وقدرة الإنسان، تدل بشكل واضح على تميز الإنسان على المادة، وأن المادة لا يمكن أن تعطيه علمًا ولا إدراكًا، ولا قدرة ولا إرادة، بل الله وحده هو الذى يملك أن يعطى الإنسان هذا التميز كما فى قوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩).

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١).

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك: ٢٣).

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ (البلد: ٨ – ١٠).

وأما الأخلاق؛ فإنها تلك المشاعر التى تنتج سلوكًا، ومحل هذه المشاعر عالم النفس عند الإنسان، إنه عالم كامل لا نعرف عنه إلا آثاره التى نحسها فى أعماقنا، وتظهر تارة على صفحات وجوهنا، أو على ألسنتنا أو أيدينا.

(*) مرجع سابق.

والمشاعر متباينة ومتعددة، مشاعر الرحمة والقسوة، العفو والانتقام، الذلة والعزة، العدل والظلم، الأمن والخوف، الحرب والسلم، الغضب والحلم، الجبن والشجاعة، الكبر والتواضع، الجبروت واللين، الهداية والضلال، القبض والبسط، الانخفاض والارتفاع، التجمع والتفرقة، الحب والبغض، الحقد والغل، الكراهية والحسد، والإحساس بالجمال والإخلاص للمثل، مشاعر تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير.

نحزن فنبكي، ونسر فنضحك، ونعشق ونبغض من عشقناه، ونرجو ونيأس.

إنها النفس أكثر شيء غموضًا في الإنسان :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾
(الشمس : ٧-٨)

وإنها الروح قبس من نور الله وأمر إلهي يحمل إشعاع الحياة فينا ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤) والروح سر دائم ولغز نسأل عنه دائما، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (الإسراء: ٨٥).

إن على الإنسان ألا يخدع نفسه، فلو فكر الإنسان بعمق، ونظر بإنصاف إلى نفسه - سواء كان عالمًا أو جاهلاً - فماذا يرى؟ إن الله

يخاطب الإنسان في القرآن: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٠ - ٢١). ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذى خلق.

وجود النفس فى حد ذاته آية ومعجزة، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية. وعدا هذا؛ ففى النفس آيات أخرى تدل على أن فى هذا الكون عجائب غير مادية، تجعل الإنسان قريبًا جدًّا مما وراء المادة. فالتنويم المغناطيسى والطرح الروحى وحوادث الرياضة الروحية التى يبصر أصحابها بلا إبصار، وكذلك الأحلام عندما تسبح النفس البشرية فى ذكريات الماضى وأحداث المستقبل، هذه المعانى كلها تدل على أن هناك شيئا غير المادة فى هذا الوجود، وحوادث قراءة الأفكار وما يحيط بها والنفس البشرية وقدراتها الفائقة والضمير وعالم الروح والهالة البشرية والأحلام والتخاطر عن بعد والشفافية والتمييز بين الحق والباطل والحاسة السادسة وغير ذلك من مواهب نفسية وروحية؛ كلها تشير بعمق إلى أن الإنسان ليس مادة فحسب، وأنه عندما يموت الإنسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادى فقط، بل مع هذا يكون الإنسان قد فقد شيئا آخر، هذا الشيء المفقود هو روح الإنسان ونفسه، وعاد التراب إلى التراب. كما فى قوله تعالى:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ٥٥).

وأخيرًا، إن نشأة الحياة دليل على الله، وتعقيدات الحياة دليل على الله، وتنوع الأحياء دليل على الله، ومركز الإنسان فى هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله، وفى النفس البشرية - أخلاقها وعجائبها - دليل على الله، وهذا وحده كاف لتعرف به الله. فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقا وما سنذكر لاحقًا؟! وكيف إذا اجتمع مع هذا وحى يتنزل ومعجزات تتحدى؟! وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء بررة؟!.

فهل يبقى بعد ذلك كله لكافر من حجة أو سبيل؟! إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدى إلى البوار ثم النار؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

ويقول أ. د أبو الوفا التفتازانى - رحمه الله - :

الإنسان بحسب ما ورد فى القرآن الكريم هو محور هذا الكون، وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الإلهية فيه، وخلقه الله فى أحسن تقويم وجعله فى أكمل صورة. يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ (التين: ٤).

ويقول تعالى :

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٤).

أما كيف تم خلق الإنسان، فهذا مما لا نستطيع الوقوف على حقيقته، صحيح أن فى القرآن الكريم ما يشير إلى قصة خلق آدم، وكيف علمه الله الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، وكيف أخطأ هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط إلى الأرض [سورة البقرة: ٣٠ وما بعدها]، ولكن هذه كلها إشارات إلى أمور غيبية لا نعرف كنهها وهى أيضا مما يحتمل تأويلات شتى.

وقد أصاب ابن حزم حيث يقول: «فلسنا نعلم ولا أحد من الناس كيفية ذلك (أى بدء الخلق)، وهذا نص قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الكهف: ٥١)أما ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام: ١١٥)، فصح أنه لا تبديل لما رتبه الله مما أجرى عليه خلائقه».

ولا يعيب الإنسان المفكر أبدا أن يقر بعجز عقله الآن عن إدراك حقيقة ما،فما أكثر مالانعرفه بيقين،وإنما الذى يعيبه حقا هو أن يسارع فينكرها لمجرد الإنكار،أو يخوض فى الكلام عنها متأولا بما لا يعرف.

وإذا كان العلماء يحددون الآن بدء ظهور الإنسان على هذه الأرض بما يقرب من مليون سنة، استنادا إلى أقدم الحفريات، فهذا يدل

على أن الإنسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات أدنى منه سبقته على هذه الأرض، بل إن الإنسان نفسه تطور على هذه الأرض مارا بمراحل متتالية حتى بلغ إلى ما بلغ إليه من كمال، يقول تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ (الإنسان: ١).

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ (نوح: ١٣ - ١٧).

ولكن التطور الذى تشير إليه مثل هذه الآيات فى القرآن إشارات مجملة تتعلق بالإنسان من حيث هو كائن مادى. لا من حيث هو كائن روحى، فالإنسان بالاعتبار الأول نشأ على هذه الأرض وتطور، أما بالاعتبار الثانى فقد كان له وجود روحى سابق فى عالم آخر - وهو ما تشير إليه قصة خلق آدم فى القرآن - وإن كنا لا ندرى كيفيات هذا الوجود.

يقول تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

أما القول بأن الإنسان مادة فقط، فهو قول ينقضه ما يعرفه الإنسان بفطرته، فهو كائن يعي ذاته، والمادة لا تعي ذاتها.

وأكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين سائر الكائنات الأخرى الحية القادرة على استخلاص أشد أنواع المعرفة تجريدا بعمليات ذهنية في غاية من التعقيد، ولا حدود لانطلاقاته في هذا السبيل.

والإنسان حين يعمد إلى تأمل ذاته، أو ما يسميه علماء النفس بالاستيطان (Introspection) لا يدرك مادة، وإنما يدرك فكرا.

وبتعبير أكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير، هي ما يطلق على مجموعة الذات المفكرة، أو بتعبير علماء النفس الأنا (Ego)، على اعتبار أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلا أن تصدر عنه.

إن استمرار حياة الإنسان الوجدانية في تيار واحد لا انقسام فيه ولا انفصام، أو بعبارات أخرى شعوره من أول عمره إلى آخره بحركة فكره المتصلة في الزمان، يثبت له أن ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما، إن كانت هي علة تدبيره وحركته.

ولما كان الإنسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة، فإنه غير محتاج في إثبات صدقه إلى دليل من خارج، فالحدس دائما أقوى من البرهان.

والإنسان يدرك من نفسه أيضا بطريق مباشر أنه حين يسلك فإنما يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا، ولا نستطيع أن نصف كل هذه الدوافع بأنها مادية. ولهذا فإن مظاهر سلوك الإنسان من أشد الأمور تعقيدا إذ لا يمكن تفسيرها آليا. ولم ينجح علماء النفس بعد في إخضاع جميع الظواهر النفسية في الإنسان إلى القياس الكمي. وعلى سبيل المثال فإن مجال العواطف الإنسانية لا يزال إلى الآن من أكثر المجالات غموضًا في علم النفس.

فأنت لا تستطيع بصفة مطلقة أن تدرك ما وراء تعبيرات الإنسان من صدق أو نفاق أو عواطف أو أحقاد أو مكر أو خداع كما في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (غافر: ١٩).

كل هذا يدلنا على الفارق بين الإنسان وبين غيره من الكائنات الحية وغير الحية. وهو الفارق الذي يكمن في أن الإنسان حين يصدر في سلوكه فإنما يصدر عن إرادة واعية وفكر استدلالي، والفكر غير خاضع لقوانين المادة، وهي لا تفسر لنا شيئا من تصوراته المجردة وعملياته المعقدة.

ونحن إذا قلنا إن الإنسان كائن ذو طبيعتين، إحداهما تتعلق بعالم المكان والزمان، والأخرى تتعلق بعالم آخر غير مادي، فإن قولنا هذا لا يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الإنسان كما يحسه هو نفسه مباشرة. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي ينزع بشعوره وبعقله

نزوعا غريبا إلى ما وراء المحسوس، وهو نزوع يكاد أن يكون فطريا فيه وملازما لطبيعته، فكيف يمكن إغفال دلالات ذلك؟

ونعود الآن إلى ما كنا بصدده، فنقول، إن الإنسان نشأ وتطور على هذه الأرض، ولكن بعد وجود سباق لا ندرى كنهه فى عالم آخر غير هذا العالم المحسوس.

ومن الآيات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢).

ويذكر فخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية أن صوفية الإسلام يأخذون فى تفسيرها برأى مؤداه أن الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان، وأن الإقرار بوجود الإله من لوازم ذواتها وحقائقها.

والواقع أن صوفية الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين فهموا تلك الآية الكريمة على هذا النحو، ولكن يشاركهم في هذا الفهم ابن حزم على الرغم من أنه من أئمة الظاهرية، فهو يقول:

«إن الله تعالى قد نص كما ذكرنا أنه أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم، وهذا نص جلى على أنه عز وجل خلق أنفسنا كلها من عهد آدم عليه السلام، لأن الأجساد حينئذ بلاشك كانت

ترابا وماء، وأيضا فإن المخاطب إنما هو النفس لا الجسد. فصح يقينا أن نفوس كل من يكون من بنى آدم إلى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك. ولم يقل الله عز وجل أنه أفنانا بعد ذلك ونص تعالى على أنه خلق الأرض والماء حينئذ بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠). وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف: ٥٤). وأخبر عز وجل أنه خلقنا من طين، والطين هو التراب والماء، وإنما خلق تعالى من ذلك أجسامنا، فصح أن عنصر أجسامنا مخلوق منذ أول خلقه تعالى السموات، وأن أرواحنا، وهى أنفسنا، مخلوقة منذ أخذ الله تعالى عليها العهد».

وفى رأينا أنه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الإنسان من الأسرار ما لا نعلم أغواره، كما أن علم الإنسان بنفسه وبإمكاناته الهائلة لا يزال محدودا إلى الآن، وربما استطاع الإنسان أن يعرف عن الكون المادى أكثر مما استطاع أن يعرفه عن أسرار نفسه.

مهما يكن من شىء، فإن الله تعالى خلق الإنسان، وشاء أن تكون هذه الأرض مستقرا له إلى وقت معلوم، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة: ٣٦).

والإنسان فى هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الأرض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها، وهذا هو معنى الاستخلاف فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠).

على أن هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان، فقد أراد الله لهذا الإنسان أن تعانى نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيما هو مستخلف فيه، وهو صراع تكتمل من خلاله شخصيته، وترتقى من الناحيتين الروحية والمادية، فيتهيأ بهذا لحياة أخرى غير هذه الحياة، والقانون الذى يحكم هذا كله هو: الجزاء على قدر العمل، يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (فاطر: ٣٩).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ (الكهف: ٧).

﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يس: ٥٤).

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة: ٦ – ٨).

وكان من مظاهر رحمة الله أن جعل فى الإنسان عقلا ليستطيع به إدراك أسرار الكون ومعرفة خالقه، وترتيب أمور معاشه فى هذه الدنيا على أفضل وجه، وهذا العقل هو الأمانة التى يذكر القرآن أن الإنسان قد حملها «انظر سورة الأحزاب آية ٧٢». وبواسطة العقل أيضا يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر، والتقوى والفجور، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس: ٧ – ٨).

ومن مظاهر رحمة الله بالإنسان أيضا إرسال الرسل بالبينات، لعلمه تعالى بأن شهوات الإنسان وأهواءه قد تنحرف بعقله إلى مسالك الشر، وكان أن تتابعت الرسالات مسايرة المجتمعات الإنسانية فى تطورها الصاعد آخذة بيد البشرية إلى أسباب ارتقائها الروحى والمادى حتى كانت الرسالة المحمدية فختمت بها الرسالات، وتحققت بها الرحمة كاملة، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

جاء الإسلام لنوع الإنسان بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه، شائبة وتم بلاغ السماء للناس جميعا، وتأكدت أهمية الإنسان على هذه الأرض وكرامته وعزته، وتحددت صلته بربه، وبأشباهه من الناس، على أسس واضحة، وتركت للناس مصالحهم المرسلة يعاجلونها كلما جدت وقائع جديدة فى حياتهم وانتهت مرحلة الاعتماد على الخوارق فى إثبات الرسالات بوصول البشرية إلى مرحلة الاعتماد على العقل فى معرفة الكون وخالقه.

لهذا كان العقل دعامة أساسية من دعامات الإسلام، واستخدام العلم من أقوى الوسائل إلى تحقيق رسالة الإنسان على هذه الأرض، وهى أن يعمرها ويستغل خيراتها إلى أبعد الحدود.

ونظرة إلى تاريخ حضارة الإنسان منذ وجد على هذه الأرض إلى الآن كفيلة ببيان الحكمة الإلهية من وجود الإنسان، فالتطور الهائل فى إمكانياته يدلنا على أن الله قد أوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجد في مخلوق آخر، ومازال مستقبل الإنسان يحمل من الإمكانيات فى تسخير الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور، ومن ذا الذى كان فيما مضى يتصور وصول الإنسان إلى القمر؟! (*).

(*) للمؤلف تفسير لآية قرآنية كريمة تشير إلى هذا الحدث الذى تم فى القرن العشرين مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانشقاق ١٨-١٩)، ارتياد الفضاء بين العلم والقرآن، دار الفكر العربى

إن الإنسان فى الحقيقة هو قمة الموجودات فى هـذا العـالم، وهـو بمثابة مرآة يتجلي فيها الكون كله، وهو الكـائن الوحيـد علـى هـذه الأرض القادر على تعقل ما حوله وإعطائه معنـى وهدفـا، ومـا أعمـق المعنـى فـى قولـه تعـالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: ٢١).

٣- المبدأ الإنسانى:

يشـير سـتيفن هوكنـغ Steven Hawking عـالم الفيزيـاء الفلكيـة بجامعـة كيمـبرج، إلى المبـدأ الإنسـانى لـدى تصديـه للتسـاؤل عـن مبررات القول بأن الكون يتمدد بمعدل السرعة المناسب تماما لتفـادى انهيار آخر فيقول: إن «التفسير» الوحيـد الـذى نسـتطيع أن نقدمـه يستند إلى رأى طرحه ديك (Dicke) وكارتر (١٩٧٠)، وهو أن هنـاك ظروفا كانت عند نشأة الكون ضرورية لتطور كائنات حية عاقلة بعـد مليارات السنين كما حدث في العصـر الأخـير. ففـى كـل الأكـوان الممكن تصورها لن توجد كائنات تشاهد الكون إلا حيث تتوافـر هـذه الظروف. ولذلك يقتضى وجودنا أن تكون للكون خواص معينة. ومـن ضمن هذه الخواص فيما يبدو وجـود نظـم متماسـكة بفعـل الجاذبيـة كـالنجوم والمجـرات، وفـترة زمنيـة متطاولـة تكفـي لحـدوث تطـور بيولوجي. ولإثبات ذلك فلو كان الكون يتمدد ببطء مفرط لما كانت له هذه الخاصية الثانية، أى لما نشأت الحياة لأنه كان سـينهار سـريعا

من جديد. ولو كان يتمدد بسرعة مفرطة لكانت المناطق التى تزيد كثافتها عن المتوسط زيادة طفيفة، أو التى تكون سرعة تمددها أقل بقليل، ستظل تتمدد إلى ما لا نهاية بحيث لا تشكل نظما متماسكة.

وهكذا يبدو أن الحياة ممكنة فقط لا لشىء إلا لأن الكون يتمدد حاليا بالسرعة المطلوبة بالضبط لتفادى انهيار آخر وللحفاظ على التوازن الجارى.

ونخلص من ذلك إذن إلى أن توحدّ خواص الكون ووجودنا، كليهما، نتيجتان لتمدد الكون بمعدل السرعة الحرجة تماما. وحيث إننا لم نكن نستطيع أن نشاهد العالم فى شكل آخر، لو لم نكن هنا، فإن فى وسع المرء أن يقول إن توحدّ خواص الكون هو، بمعنى ما، نتيجة مترتبة على وجودنا.

ويمكن تفسير حجة هوكنغ وهو خليفة أينشتين بطريقتين مختلفتين. فالنظرة الإلحادية القديمة كانت تعتبر أن أى شىء فى الكون يفضى إلى الحياة هو من باب الصدفة، وأن «الكون، سواء أكان له معنى أم لم يكن، كان على أية حال سيظهر إلى حيز الوجود ويجرى مجراه حتى لو كانت الظروف الثابتة والأولية تحول إلى الأبد دون تطور الحياة والوعى. فالحياة جاءت طارئة على آلية الكون» كما يصور ويلر موقف النظرة القديمة.

أما البديل فهو أن ننظر إلى الكون على أنه يستهدف الحياة والإنسان. وهذا يتطابق مع ما يطلق عليه كارتر اسم «المبدأ الإنساني القوى» الذى يقول «إن الكون (وبالتالى الثوابت الجوهرية التى يتوقف عليها) لابد من أن يكون بحيث يسمح بقبول مراقبين داخله فى مرحلة ما». وبهذه الروح يتساءل ويلر «أى معنى يمكن استخلاصه من الحديث عن الكون» ما لم يكن هناك أحد واعيا لوجوده. ولكن الوعى يتطلب الحياة. والحياة، أيا كانت تصورنا لها، تتطلب عناصر ثقيلة، وعملية إنتاج عناصر ثقيلة من الهيدروجين الأصلى تتطلب احتراقا نوويا حراريا. وهذا أمر يتطلب بدوره طبخا فى باطن النجم يستغرق مدة تساوى عدة مليارات من السنين. ولكن لكى يمر على الكون مثل هذه المدة من الزمن فلابد من أن يكون له - وفقا للنسبية العامة - امتداد فى المكان يقرب مما يقطعه الضوء فى عدة مليارات من السنين. فلماذا يكون العالم إذن بهذه الضخامة؟ والجواب: لأننا موجودون فيه».

إنه قلب مذهل لتصور النظرة القديمة. فضخامة الكون تعتبر سببا فى جعل الحياة ممكنة. هذا إلى أن المبدأ الإنسانى ليس مقصورا على علم الكونيات. فالفيزيائى فريمان دايسن (Freeman Dyson) يبين كيف أن القوى التى تربط بين النيوترونات والبروتونات فى نواة الذرة لابد من أن تكون - حتى هى - على ما هى عليه كيما تصبح

الحياة ممكنة. يقول: «لو أن القوى النووية كانت أقوى بقدر طفيف مما هى عليه لوجد الديوترون، ولاتحد كل الهيدروجين الموجود فى الكون تقريبا، متحولا إلى ديتوترونات أو قوى أثقل، ولكان الهيدروجين عنصرا نادرا، وتعذر وجود نجوم كالشمس تعيش طويلا باحتراق الهيدروجين في قلوبها احتراقا بطيئا. ومن جهة أخرى، لو كانت القوى النووية اضعف بقدر ملحوظ مما هي عليه الآن لما أمكن احتراق الهيدروجين مطلقا، ولما كانت هناك عناصر ثقيلة، وبالتالى لما وجدت الحياة. فإذا كان تطور الحياة - كما يبدو مرجحا - يتطلب نجما كالشمس يزود طاقة بمعدل ثابت طوال مليارات السنين فمعنى ذلك أن شدة القوى النووية كان لابد لها من أن تنحصر فى نطاق ضيق نوعا ما فى حدود قيمتها المعروفة لجعل الحياة ممكنة».

ويمكن إيراد العديد من الأمثلة الأخرى. فعلى سبيل المثال يلاحظ دايسن أنه: لو تبدلت القوانين بحيث لا تتوقف الإلكترونيات عن استبعاد بعضها بعضا طبقا لمبدأ باولى فى الفيزياء الذرية لما بقيت أية عملية من العمليات الكيمياوية الأساسية التى نعرفها. وهنالك العديد من الظواهر المواتية الأخرى فى الفيزياء الذرية. ومن دون هذه القوانين ما كان للماء أن يوجد على هيئة سائل، ولا لمجموعات ذرات الكربون أن تشكل جزئيات عضوية معقدة، ولا لذرات الهيدروجين أن تشكل جسورا بين الجزئيات القابلة للكسر».

إذا فخواص المادة، علــى أصغـر نطـاق وعلـى الكـون كلـه، تبـدو ملائمة للحياة ملاءمة فذة. ولا توجد هناك شـواهد كثـيرة علـى ذلـك فحسب، بل إن حدوث أدنــى زيـادة أو نقصـان فـى الكميـة الثابتـة يجعل من الحياة في كل حالة أمرا مستحيلا. ويتحـدث ويلر عـن جملة الأكوان، ولكنه يشير إلى أن عددا صغيرا جدا منها كـان يمكـن أن يصلح للحياة. وبعد أن استعرض دايسن هذا النمط العريض ينتهى إلى أن ذلك يدل على غاية مستهدفة، لا على الصدفة، قائلا: «كلمـا ازددت دراسة للكون وفحصـا لتفاصيل هندسـته وجـدت مزيـدا مـن الأدلة على أن الكون كـان يعـرف بطريقـة مـا أننـا قـادمون». وبلغـة القرآن لوجدت مزيدا من الأدلة على أن يكون مصمما ليكـون مسـخرا لقدوم الإنسان فى النهاية فبعض الظروف الضرورية للحيـاة كـان قـد ركب تركيبا فى الانفجار العظيـم منـذ بدايـة البدايـة. وصدق الحـق تبارك وتعالى مشيرا إلى هذا المبدأ الإنسانى بقوله:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ١٣).

ويؤكد ويلر أنه «لم يظهر سـبب واحـد يفسر لمـاذا يكـون لبعـض الثوابت والظروف الأولية ما لها مـن القيـم سـوى أنـه لـولا ذلـك لمـا تيسرت المراقبة بالشاهد العاقل كما نعرفـها». ويتسـاءل: أليـس مـن الأرجح أن نقول إنه «ما من كون يمكن أن يبرز إلى حيز الوجود ما لم

يكن مضمونا له أن ينتج الحياة والوعى والشهود فى مكان ما ولمدة قصيرة من الزمن فى تاريخه المقبل؟ «إن الحياة لم تأت مصادفة، ويؤكد أن ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجدية ونفحص وجهة النظر القائلة إن المراقب أى الراصد أى الإنسان لازم لخلق الكون لزوم الكون نفسه لخلق المراقب». ومع أن الإنسان ليس ماديا فى مركز الكون فهو على ما يظهر فى مركز الغاية من خلقه. وكما يقول إيرون شرود نغر فالكون من دون الإنسان يكون أشبه بمسرحية تمثل فى قاعة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين». وهنا تبدو لنا نحن – المسلمين – الحكمة من قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقوله تعالى:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

والكون الذى يستهدف ظهور الإنسان يستلزم بداهة وجود عقل يوجهه، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أى شىء. ومن هنا فالنظرة الجديدة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع نواميس الكون بأسلوب ملائم لقدوم الإنسان فى النهاية، وهذا تكريم إلهى لبنى آدم لعلهم يوقنون كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فتفضيل الله لآدم وبنيه على كثير من خلقه يرجع إلى أنه سبحانه نفخ فينا من روحه وزودنا بخاصية اكتساب العلم والمعرفة والقدرة على تطويع هذا العلم والاستفادة منه في جميع شئون حياتنا. والمبدأ الإنساني يدل على أن الله قاصد مريد لقدومنا، فلقد نفى سبحانه أن يكون خلق الكون لمجرد التسلية فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٦ - ١٧).

أي أن الله جلت قدرته لم يخلق السموات والأرضين وما بينهما لشغل وقت الفراغ (حاشا لله) ولو كان القصد كذلك لما استدعى الأمر أن يخلقنا. فالله سبحانه منزه عن العبث بل اقتضت إرادته ومشيئته أن يخلق الكون ويسخره لخدمة الإنسان القادم بعد مليارات السنين من بدء الانفجار العظيم، وأن يخلق الإنسان وينفخ فيه من روحه لكي يؤهله لمهمة الخلافة في الأرض كما في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحجر: ٢٨ - ٢٩).

وقوله سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(البقرة: ٣٠).

فتعالى الله عن العبث علوا كبيرا كما فى قوله تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(المؤمنون: ١١٥ - ١١٦).

وقوله سبحانه مؤكدا تسخير الكون بأرضه وسمائه من أجل الإنسان فى آيات كثيرة منها:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ (ق: ٦ - ١١).

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (النبأ: ٦ - ١٦).

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد: ٣ - ٤).

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (المؤمنون: ١٨ - ١٩).

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ

﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الواقعة: ٦٨ - ٧٤).

إن هذه الموافقة بين الكون والإنسان كما عبر عنها المبدأ الإنساني حديثا (و الذى أعلنه ستيفن هوكنج أكبر علماء القرن العشرين بعد أينشتين) والذى تشير إليه هذه الآيات القرآنية، وكثير غيرها فى القرآن الكريم قد عبر عنه ابن رشد قائلا:

«كما أن الإنسان إذا نظر إلى شىء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما، وقدر ما، ووضع ما، موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشىء المحسوس، والغاية المطلوبة منه، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل، أو بغير ذلك الوضع، أو بغير ذلك القدر، لم توجد فيه تلك المنفعة، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الأشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق، كذلك الأمر فى العالم كله، فإنه إذا نظر الإنسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار، وسبب الأمطار والمياه والرياح، وسبب عمارة أجزاء الأرض، ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات، وكون الأرض موافقة لسكنى الناس فيها،

وسائر الحيوانات البرية، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي ههنا، علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك عن قاصد قصده، ومريد أراده، وهو الله عز وجل، وعلم على القطع أن العالم مصنوع».

إن نظرة ابن رشد إلى ما فى الكون من نظام يدل على علمية تفكيره، فلقد سبق هوكنج فى إحساسه بالمبدأ الإنسانى من خلال تدبره لآيات الله. . . ولو عاش ابن رشد فى عصرنا لعلم من أسرار الموجودات فى الكون، ومن موافقتها لوجود الإنسان ما لم يكن ليخطر له على بال، ولتقوى دليله فى الغائية بأكثر مما هو عليه، ولكان ابن رشد هو صاحب المبدأ الإنسانى وليس كارتر وستيفن هوكنج!

ومن الطريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين، هو «ديل سوراتزن دروير»، عن نفس دليل ابن رشد الذى مر بك، ولكن بلغة عصرنا، فيقول:

«كيف نفسر ذلك النظام والإبداع الذى يسود هذا الكون؟ هناك حلان، فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة، وهو ما لا يتفق مع المنطق أو الخبرة، وما لا يتفق فى نفس الوقت مع

قوانين الديناميكا الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم.

«وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير، وهو الرأى الذى يقبله العقل والمنطق»،

«وهكذا ترى العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره».

«وأنا واثق أن الأخذ بهذا الرأى سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعة وقوانينها. ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية، ويظنون أن النظريات التى يصلون إليها فى تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينها».

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا إلى الاعتقاد أن ما وصلنا إليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس إلا تفسيرات مؤقتة، وليست لها صفة الإطلاق أو الثبات».

«فإذا سلمنا بهذا الرأى تضاءل خطر المعارض فى غرضية الكون أو وجود غاية منه. فمما لا شك فيه أن هناك حكمة وتصميما وراء كل شيء، سواء فى السماء التى فوقنا أو الأرض التى من تحتنا.

«إن إنكار وجود المصمم والمبدع الأعظم يشبه فى تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الإنسان حقلا رائعا يموج بنباتات

القمح الصفراء الجميلة، ثم ينكر فى نفس الوقت وجود الفلاح الذى زرعه والذى يسكن فى البيت الذى يقوم بجوار الحقل!!».

وما أجمل عبارة أينشتين: «إن الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة»(*).

وإذا كانت حياة الإنسان على الأرض قصيرة للغاية إلا أنها عظيمة الإنجازات فهل ينتهى كل هذا فجأة ويضيع كفاح الإنسان كله على هذه الأرض؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الإنسانية وتعمير الأرض مع من أفسد فيها؟ وهل يستوى العالم والجاهل والمحسن والمسىء؟.

لو كان الأمر كذلك، إذن تكون حياة الإنسان على الأرض عبثا لا معنى له، وضياعا لا حد له!

لقد علم الله حين خلق الإنسان أنه قد يحتجب بشهواته وأهوائه عن رؤية الحقيقة فيقع فى وهم كوهم الدهرية حين قالوا: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾(الجاثية: ٢٤).

ومن هنا بين الله تعالى للإنسان أن وراء حياته هذه حياة أخرى سيحاسب فيها على أعماله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر،

(*) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٥٤.

لا يستوى فيها العالم والجاهل، ولا المؤمن والفاسق، ولا الطيب والخبيث.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر: ٩).

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾

(السجدة: ١٨).

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾

(المائدة: ١٠٠).

وهذا هو العدل الذى يطمئن إليه قلب الإنسان ويجعل لحياته معنى. فإذا كان الكون مخلوقا من أجل الإنسان فالآخرة والعالم الآخر ستحدث من أجل الإنسان فهى العزاء الوحيد لحتمية الموت فى الدنيا وهى امتداد فى نظرى للمبدأ الإنسانى(*).

إن الإيمان بحياة أخرى يدفع الإنسان أيضا إلى العمل الصالح النافع لأن هذا هو الطريق المؤكد إلى السعادة.

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه: «هل للحياة قيمة» قال فيه أن الحياة تستحق أن نحياها إذا اعتقدنا بأن هذا

(*) الكون والإعجاز العلمى للقرآن، للمؤلف. دار الفكر العربى ١٩٩٦. راجع المبدأ الإنسانى ص ٣٢٦ وضرورة الآخرة ص ٤١٩.

العالم ليس إلا جزءا من الوجود، وأنه يوجد إلى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة، وتوجد هذه القوى فى عالم غير مرئى.

إن اعتقادنا فى هذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للإنسان. ومعنى الخيرية ملاءمة عالمنا لحياة خلقية ودينية ناجحة. إن الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا مجالا جديدا وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصاب بالعجز واليأس. إننا حينئذ نشعر بالأمل والسعادة حينما نرتمى فى أحضان ذلك العالم الفسيح.

لقد عبر وليم جيمس عن واقع الإنسان حين جعل سعادته مرتبطة بإيمانه بوجود عالم غيبى، وهى سعادة لا يمكن أن يعرفها حق المعرفة إلا من عانى تجربة دينية حقيقية لا شكلية. وعلى العكس من ذلك الإنسان الملحد فهو لا سبيل له إلى تصور سعادة كهذه، لأنه إذا تفكر فى مصيره يجد نفسه عاجزا بإزاء الموت الذى يضع نهاية أخيرة لوجوده من وجهة نظره، لا مفر له منه فى نفس الوقت. وهذا يدفعه إلى أنواع من التحديات العنيفة التى يحاول أن يؤكد بها ذاته. ومن بين صور هذه التحديات السعى إلى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية وإقبال لا حد له على ملذات الحياة دون مبالاة بالغير، وبطرق مشروعة وغير مشروعة. وهذا يفسر لنا لماذا يقترن الإلحاد بالأنانية المفرطة والحقد والحسد والضغينة وما إلى ذلك من شرور أخلاقية. وهذا أمر طبيعى، فما الذى يمكن أن يخشاه

الملحد إذا كان يعتقد أنه لا قيم تلزمه، ولا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب».

ويقول أ. د. التفتازاني رحمه الله(*).

ومن أطرف ما نجده في الفكر الإسلامي ردا على الملحدين المنكرين للبعث ما يورده الإمام الغزالي(**) من محاورة بين الإمام علي رضي الله عنه وأحد الملحدين، قائلا:

«قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين: إن كان ما قلته (من أنه لا بعث ولا حساب) حقا، فقد تخلصت وتخلصنا».

«وإن كان ما قلناه (من وجود البعث والحساب) حقا فقد تخلصنا وهلكت».

ويعقب الإمام الغزالي على هذا قائلا: وما قال (الإمام علي) هذا عن شك منه في الآخرة، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله!».

ويعبر الإمام الغزالي عن هذه الفكرة ذاتها قائلا: «ليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا. فإن صدق أولئك العقلاء في أمر الآخرة، وكذب هو، فإنه يبقى في عذاب أبدي. وإن كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته إلا بعض شهوات الدنيا الفانية»(***).

(*) الإنسان والكون في الإسلام دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٥ م.

(**) انظر إحياء علوم الدين، جـ ٣، ص ٣٢٦ وما بعدها.

(***) هذه الفكرة هي عين تلك التي عبر عنها بعد الغزالي بقرون الفيلسوف الفرنسي باسكال وتعرف عنده بفكرة الرهان، وذلك في كتابه «الخواطر».

ومن ثم فإن ما هو أكثر ضمانا بالنسبة للإنسان أن يعتقد بالبعث إذا نظر إلى مصيره نظرة عقلية واعية كما فى قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

(البقرة: ١ - ٥).

ولذلك يبين القرآن لنا أن حياة الإنسان مع إنكار البعث تكون عبثا لا معنى له بل وكفرا يفقد صاحبه توازنه النفسى فهو الخاسر والله سبحانه غنى عن العالمين.

ولا بد من وجود حياة أخرى وراء هذه الحياة أكمل وأبقى يلقى فيها الإنسان الجزاء على ما قدم من أعمال، فحياتنا هذه الدنيوية ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى وسيلة لغاية أبعد. يقول تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ ﴾

(المؤمنون: ١١٥).

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ ﴾ (القيامة: ٣٦).

﴿ يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (غافر: ٣٩).

إن الإنسان إذا لم ير لحياته معنى أو غاية وقع حتما فى التشاؤم الشديد والاكتئاب النفسى، وتحلل من كل القيم، وتخلى عن إنسانيته أو المعنى الذى كرمه الله من أجله، وأصبح لا يعقل شيئا مما حوله، ولا يبدو له أى أمر من أمور حياته معقولا(*).

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة، كوجودية سارتر إلى الإنسان على أنه كائن حائر، وأنه وجود يحمل العدم فى صميمه. بل إن وجود الإنسان عند سارتر مرادف للقلق إلى الحد الذى يجعله يقول «نحن قلقون».

والإنسان كما يقول سارتر محكوم عليه فى كل لحظة أن يخترع الإنسان، فما الإنسان إلا ما يصنع نفسه، وما يريد لنفسه، وما يتصور نفسه بعد الوجود. إنه هو وحده خالق قيمه ومعاييره، يقول سارتر: «ويترتب على ذلك أن حريتى هى الأساس الوحيد للقيم، وليس ثمة شىء مطلقا يمكنه أن يلزمنى باصطناع هذه القيمة أو تلك».

(*) هذا ما تشير إليه مثلا مسرحيات الكاتب المسرحى المعاصر الذى حاز شهرة كبيرة فى أوروبا صمويل بيكبت (١٩٠٦) وهو يركز فى مسرحياته على أن حياة الإنسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة. ومن هنا عرف مسرحه بالمسرح اللامعقول. وهذا النوع من الكتاب يعكس لنا إلى أى حد تعانى الحضارة الأوروبية من أزمة قيم شديدة قد تعجل بانهيارها.

إن الحرية عند سارتر ليست سوى إرادتنا وأهوائنا، وحياتنا لا شيء غير العبث والضياع، والإنسان عاطفة لا فائدة منها.

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الإنسان فتسلبه كل معنى يمكن أن يكرم من أجله.

وسيظل إنسان العصر في هوة الضياع إذا لم يتجاوز القلق إلى الإيمان عن طريق إسلامية العلم والمعرفة، وستزداد مشكلاته حدة إذا ظل يمارس حرية كتلك التي يدعو إليها سارتر، وهي حرية من شأنها أن تؤدي به إلى التردي في الهوة السحيقة التي يريد سارتر أن يئول إليها كل وجود إنساني، وهي هوة العدم لأن الدنيا في نظر هذا الملحد أرحام تدفع وأرض تبلع!.

وحين يركز فلاسفة هذا العصر اهتمامهم على ما يسمونه «مأساة الإنسان» فهم ينطلقون من الإلحاد. والذي ينطلق من الإلحاد غارق في ظلمات الجهل كما في قوله تعالى: ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠).

إن كثيرا من فلسفات العصر إذا تنتهي إلى العدمية لا تمثل إلا خواء فكريا كفيلا بالقضاء على كل ما هو عظيم من إنجازات الإنسان.

ويقول أ. د. أبو الوفا التفتزاني رحمه الله(*):

وإذا كان فى عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياة الإنسان معنى، فإنه توجد فيه فلسفات أخرى تصطبغ فى ظاهرها بصبغة العلم ولا ترى فى الوجود إلا المادة، وتذهب إلى أن العلم المادى الذى ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة، وأن المادة ليست من نتاج العقل، بل إن العقل ما هو إلا أسمى نتاج للمادة.

ومثل هذه الفلسفات الأخيرة إنما تولد فى الإنسان غرورا لا حد له بنفسه وبالعلم وإنجازاته. وما تراه الآن فى عالمنا المعاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا فى إثارة الحروب والتدمير، إنما هو مظهر من مظاهر غرور الإنسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابتعاده عن القيم الإنسانية التى يمكن أن تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها.

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسيا ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته على الأرض إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره، ذلك أن الكون كله شأن من شئون الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٩). فهو تعالى خالق الكون بما فيه الإنسان، وهو الذى ركب العقل فى الإنسان ليعمر به الأرض لا ليدمرها، وليعرف به خالقه لا ليلحد. . وحاول أن تضع الإنسان

(*) مرجع سابق.

فى إطار الكون كله وقوانينه الحتمية - لا فى إطار قدرته الخاصة المحدودة - لترى أن ليس للإنسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته، لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعا ومدبرها وهو الله. وتأمل بعد ذلك عمق المعنى فيما ورد فى القرآن الكريم على لسان إبراهيم ردا على أحد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه فى نطاق ذلك الإطار الكونى الذى أشرنا إليه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وإذا كان الإنسان عاجزا بالنسبة لما يجرى فى الكون فمن باب أولى أن يكون عاجزا بالنسبة لإدراك خالق الكون، يقول تعالى منبها أفراد الإنسان:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (العنكبوت: ٢٢).

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما إلا بعد نجاح الإنسان فى الهبوط على سطح القمر، وربما تساءل الإنسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى: «ولا فى السماء» إذ ما شأن الإنسان بالسماء فى عصر

الجاهلية؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها، وهو كائن من شأنه أن يكون دائما على الأرض؟.

ومن أطرف ما وقفت عليه في تفسير هذه الآية عبارات للإمام فخر الدين الرازى يوضح فيها أن الإنسان، لو استطاع أن يصل يوما ما إلى السماء، وهو جائز فإنه لن يكون معجزا لله فى هذه الحالة أيضا، فلم يطرح من ذهنه إمكانية وصول الإنسان إلى الفضاء الخارجى بما فيه من أجرام، وقد كان ذلك فى عصره ضربا من ضروب الخيال، مع أنه أصبح فى عصرنا حقيقة واقعة(*). يقول الرازى ما نصه: «ما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء «يعنى الهرب أو الثبات» أى لا تخرجون من قبضة قدرة الله، فلا إعجاز لا بالهروب ولا بالثبات. . وقدم (تعالى) الأرض على السماء لأن هربهم الممكن فى الأرض، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك، فيكون لهم صعود فى السماء».

إن تلك الآية، وكثير غيرها فى القرآن إنما تنبه الإنسان إلى خُلُق التواضع، فمهما تقدم العلم، ومهما سيطر الإنسان على بعض جوانب الطبيعة، فلا ينبغى أن يغتر بما وصل إليه حتى لو نزل بقدمه على القمر أو المريخ أو غير ذلك من كواكب، وإنما عليه أن يتذكر دائما

(*) ارتياد الفضاء بين العلم والقرآن. د. منصور حسب النبى. دار الفكر العربى

أن ثمة قوة أكبر من قوته وهى قوة الخالق. وأن الكون أوسع من أن يحيط به عقله المحدود. وفى زيارة لشيكاجو فى مؤتمر إسلامى(*). ذكرت للأمريكيين الذين حضروا المؤتمر أن معجزة الدخان قادمة فى المستقبل، كما فى قوله تعالى:

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الدخان: ١٠ - ١٤).

ورد أحد الحاضرين قائلا إن وكالة (ناسا) تتوقع اصطدام مذنب بالأرض فى عام ٢١٢٦، وتجرى التجارب الآن فى إطار تكنولوجيا حرب الكواكب لتحطيم رأس المذنب قبل السقوط عليهم، وكان ردى فى قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٢).

لقد سأل صحفى أمريكى يدعى «فيرك» العالم المشهور أينشتين قبيل وفاته عن موضوع الإيمان بالله فرد عليه أينشتين قائلا:

(*) منشور فى مجلة منبر الإسلام (١٩٩٧).

أما أنا فلست ملحدا، ولا أدرى ما إذا كان يصح فى القـول بـأنى من أنصار مذهب وحدة الوجـود، فالمسـألة أوسع نطاقا مـن عقولنا المحدودة (لاحظ دلالـة اعـتراف أينشـتين هنا بـأن العقـل البشـرى محدود مع أن عقليته تعد أكبر عقلية علمية فى القرن العشرين).

فعاد فيرك ليقول له: إن الرجل الذى يكتشف أن الزمـان والمكـان منحنيان، ويحبس الطاقـة فـى معادلـة واحـدة جديـر بـه ألا يهولـه الوقوف فى وجه غير المحدود.

ويرد عليه أينشتين قائلا: اسمح لى أن أجيب بـأن أضـرب مثـلا. إن العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطـة بـالكون. فنحـن أشـبه الأشـياء بطفـل دخـل مكتبـة كبـيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها، وهـى مكتوبـة بلغـات كثيرة. فالطفل يعلم أنه لابد أن يكون هنـاك شـخص قـد كتـب تلـك الكتب، ولكنه لا يعرف من كتبها، ولا كيف كانت كتابته لها، وهو لا يفهم اللغات التى قد كتبت بها.

ثم إن الطفل يلاحظ أن هنـاك طريقـة معينـة فـى ترتيـب الكتـب ونظاما خفيا لا يدركه هو، ولكنه يعلـم بوجـوده علمـا مبـهما، وهـذا على ما أرى هو موقف العقل الإنسانى من الله مهما بلغ ذلـك العقـل من السمو والعظمة والتثقيف العالى.

وعاد الصحفى الأمريكى ليسأله مرة أخرى:

أليس فى وسع أحد، حتى أصحاب العقول العظيمة، أن يحل لنا هذا اللغز؟

فكانت إجابة أينشتين كما يلي:

نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة. ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الإبهام، وإن عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم.

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك أن أينشتين فى موقفه من مشكلة الكون وخالقه لم يخرج عن الأدب الذى رسمه لنا القرآن الكريم، فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بإزاء الخالق تعالى، لأن عقولنا محدودة ولن تستطيع أن تدرك كنهه قال تعالى:
﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

ولعلك تدرك ههنا أيضا عمق المعنى فيما حكى عن الجنيد أحد كبار أئمة التصوف فى الإسلام، قال: «اشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر (الصديق): سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته».

إن الإنسان إذا استطاع أن يجمع بين العلم بالكون والتدين من حيث هو قيمة أخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثالية تهدف دائما إلى النفاذ إلى الحقيقة، فإنه يصل إلى ذروة الكمال.

والتوجيه الإسلامى للعلم والمعرفة علاج للفرد وللمجتمع، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على رأسها الغرور بنفسه وبعلمه وبإمكانياته، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوعا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح.

ويعلق أ. د. التفتازانى فى كتابه رحمه الله:

«لقد بدأت مجتمعاتنا، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى، وأصبحت فى عصر سيادة القوة المادية وحدها تتشكك فى القيم الإنسانية الرفيعة، هل لها وجود أم أنها وهم من الأوهام! لقد أصبح الناس فى عصرنا - اللهم إلا قلة واعين - ينظرون إلى كل شىء على ضوء المادة ويقيسون كل شىء بمقياس الحس.

ويقيننا أن الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلتهم به الدنيا إلى تدبر ما فى الإسلام من المثل الروحية، ولو آمنوا بأن وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله، وله قيمه ومعاييره لغيروا من حكمهم على الأشياء ولوجدوا الراحة النفسية بعد العناء، ولأقبلوا على حياتهم فى تفاؤل وابتسام، ولاندفعوا إلى العمل المثمر فى همة وثبات».

إن إسلامية المعرفة منهج كامل فى الحياة، والمسلم المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى

يعيش فيه، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح، والتدين بهذا المعنى «فلسفة إيجابية» تضفى على حياة الإنسان معنى ساميا.

لهذا لا ينبغى أن يظن بأن المسلمين قوم سلبيون يصرفون الناس عن الكون المادى وعلومه إلى الإغراق فى العبادة والانعزالية عن المجتمع، فهذا تصور غير صحيح بالنسبة للإسلام، فالإسلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الأخروى، ولا يصرف الناس عن الأخذ بأسباب الدنيا وبخيراتها ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

إن نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان ذات مغزى أخلاقى بعيد، يبين للناس أن الكون مجرد شأن من شئون الله، ومصيره حتما إلى الفناء، فلا ينبغى على الإنسان العاقل أن يتعلق نفسيا بالكون إلى حد عبادته، يقول تعالى:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرحمن: ٢٦ - ٢٧).

وكذلك لا ينبغى على الإنسان أن يغتر بنفسه وبعلمه، يقول تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٧).

ويقول أ. د. التفتازاني رحمه الله مدافعا عن الصوفية في نظره:

«يمضي بعض الصوفية من أصحاب وحدة الوجود كابن عربي إلى حد وصف الكون بأنه محض خيال إذا نظرنا إليه في ذاته، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو مظهر لتجلى الحق بأسمائه الإلهية، فإنه يصبح حقيقة، وإلى هذا يشير بقوله:

إنما الكون خيال   وهو حق في الحقيقة

والذى يفهم هذا   حاز أسرار الطريقة

إن هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لأول وهلة. فإن صورة الكون بعد نظرية أينشتين لم تعد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصوفية، مادامت الموجودات فيه ذرات، والذرات تتحلل إلى إشعاعات، وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها إنما هو أمر راجع إلى إدراكنا فقط وليس إلى حقائقها.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الصوفية يُهَوِّنُون من شأن الإنسان ومكانته في الكون، كما يزهدونه في الكون نفسه. وليس ثمة شيء أبعد عن الحقيقة من هذا.

وكيف يزهّد الصوفية الإنسان في الكون، والكون مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما إليها؟

وكيف يهون الصوفية من شأن الإنسان وهم يعلمون أنه خليفة الله على هذه الأرض؟

لابد أن يكون وراء كلامهم عن الكون والإنسان غايات بعيدة، فهم يريدون للإنسان فى علاقته بالكون أن يكون خاضعا لقيم أخلاقية معينة، فلا يتعالى ولا يطغى، ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بإمكانياته، إنهم كذلك يريدون له أن يتحرر من عبودية الركون إلى العالم المحسوس وملذاته لينطلق إلى فضاء المعرفة بخالقه».

والمسلمون المتقربون إلى الله يعلمون الكثير من نواحى الضعف الخلقى فى الإنسان، فيريدون علاجها وتلافى أسبابها، لما يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالإنسان ذاته وبمجتمعه، ألم يقل الله تعالى:

﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ (النساء: ٢٨).

﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ (الإسراء: ١١).

﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ (الكهف: ٥٤).

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾ (العلق: ٦ - ٧).

وهذه الآيات إنما تصور الإنسان حين ينحرف فى سيره عن الوجهة التى يريدها الله له.

أما الإنسان من حيث ما يحقق إنسانيته بالعلم وقيم الأخلاق أى بإسلامية المعرفة فلا حدود لارتقائه وتقدمه.

الفصل الخامس

ظاهرة الحكمة الإلهية

الكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر، وظاهرة الحكمة خير شاهد على ذلك... فالإنسان العادى يرى أن فى الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم، وكلما ازداد علما ازدادت معرفته بهذه الحكمة، فما رأينا العلم إلا كاشفا للحكمة، ولهذا يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض كما فى قوله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يونس: ١٠١).

وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وقوله عز وجل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٥).

إن الله تعالى لا يقبل من المسلم إلا أن يرى فى كل شىء آية تدل عليه سبحانه اعتقادا وتؤكد وجوده استشعارا، وما لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر، فحكمة الله ظاهرة

وليست خافية، وإن قلبا لم ير آثار الله فى كل شيء لقلب أعمى كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

ولعل هذا المعرض عن آيات الله محل شفقة يأسف المؤمن لحاله كما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف: ٦).

ولقد ورد لفظ الحكمة فى القرآن الكريم فى عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة: ١٥١).

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾(آل عمران: ٤٨)

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (النساء: ٥٤).

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء: ١١٣).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (لقمان: ١٢).

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(ص: ٢٠).

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

(البقرة: ٢٣١)

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل: ١٢٥).

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٩).

قالوا عن الحكمة: إنها وضع الشيء في محله، وبالنسبة للكون بإطلاق اقتضت حكمة الله ألا يكون شيء منه أفضل وأحسن في غير المحل الموجود فيه فكل شيء مهيأ في وضعه لما سخر له. وهذا واقع الكون، فكل ما فيه على غاية من الحكمة، فليس بإمكان العقل أن يتصوره أحكم مما هو فيه، وادرس كل شيء فيه، أجزاء وكتلاً، تجد الحقيقة ناصعة تقول: ما أنا عليه عين الحكمة، وهذه أمثلة:

١ - برغم أن الموت حق مكروه فإنه ضرورة، فلولا الموت ماذا يحدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت، فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥ سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت! ومن هنا نفهم حكمة المرض، وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم وغيرها، ويقول قائل: ترى لو كان الإنسان يموت بلا مرض أليس أحسن؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه؟ وقد غاب عن

هؤلاء حكمة وجود الأمل، وحكمة الإنذار، وحكمة الصبر، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع.

٢ - ما يخرج من الإنسان وحده، كان يمكن أن يصبح مشكلة، فلولا وجود أنواع البكتريات والعوامل الكثيرة التى تؤثر فى تحويل وإبادة هذا الخارج لما استمرت الحياة، وسبحانه يخلق الحى من الميت ويخلق الميت من الحى فى دورة الحياة والموت كما فى آيات قرآنية كثيرة.

وهكذا نفهم حكمة(*) وجود كثير من الأشياء التى يتصور الإنسان مبدئيا أنه لا ضرورة لوجودها، وبالتالى يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة. . إنه لو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا جمالها لكفى الجمال. . ولو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة. إن وجود الخوف من أكبر الحكم، إذ يعلم الإنسان الحذر، وبالتالى ينمى قدراته، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا أنها تريك محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدلك على التناسق، لكان ذلك وحده حكمة، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكفى ذلك حكمة.

(*) كتاب «الله جل جلاله» أ. سعيد حوى، مرجع سابق.

٣ - ويقول بعض الناس: وحتى الشر فيه حكمة؟! وكذلك الألم؟! أليس العدل خيرًا من الظلم، والرحمة خيرًا من القسوة؟ والرعاية خيرًا من التيتم؟ والإيمان خيرًا من الكفر؟ والقيام بالواجب خيرًا من إهماله؟ وبالتالى فما الحكمة في وجود هذه النقائص وغيرها خير منها؟

ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا: لِمَ خلق الله الشر؟ وإلى أن يقولوا: إن وجود الشر دليل على «أن لا إله» لأن الإله ينبغى أن يكون خيرًا، ولا يصدر عنه إلا كل خير.

ونقول: أن نحب معرفة الحكمة فى كل شيء، أو أن نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة، فهذا شيء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور فى معرفة الحكمة لا يعنى عدم وجودها. وأما أن نسأل الله لم فعلت؟! فهذا لا، ولا يسأل هذا السؤال إلا جاهل بجلال الله وإحاطة علمه وناس محدودية الإنسان بالنسبة لعدم تناهى كمالات الله. والعالم إذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لم فعلت؟ وكما قال الله عن الإنسان:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

وأما أن تقول: إن وجود الشر دليل على (أن لا إله) فإن هذا محض الجهل، ومحض ضيعة الفكر، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون، فإن وجود الله قائم عليه من البراهين؛ بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل ملكاته.

وإذن ففى دائرة التعرف على الحكمة نجيب على التساؤلات الآنفة:

الزنى شر، فهل خَلْق آلاته شر؟ لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية، وكذلك للأنثى، وخلق عند الرجل شهوة وعند المرأة شهوة، والحكمة واضحة، فيما خلق الله، ولكن الإنسان هو الذى نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذى خلقت له من أجل بقاء الجنس، إلى حالة الفوضى الجنسية، فليس الشر إذن فى خلق هذه الأعضاء، وإنما الشر فيما فعله الإنسان متجاوزًا الحدود التى خلقت الأشياء من أجلها والتى حددها الله فى قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل: ٧٢).

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (الشعراء: ١٦٥-١٦٦).

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ ﴾

(البقرة: ٢٣٥).

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (النور: ٣).

وشرب الخمر شر؛ وهل خلق العنب شر؟! إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل، والحكمة في خلقه واضحة، والإنسان هو الذى نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد. واستعمال الحديد في القتل غير المشروع شر، فهل خلق الحديد شر؟! إن وجود الحديد فيه من الحكم ما لا يعد ولايحصى، وإنما كان استعمال الإنسان له استعمالا خاطئا هو الشر.

والحسد في حد ذاته الذى هو تمنى زوال النعمة عن المحسود شر؛ فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر؟! إن ملكة التنافس عند الإنسان من أكبر العوامل التي تؤدى إلى ازدهار العمران وصلاح الإنسان، ولكن الإنسان هو الذى حرف هذه الملكة فيه فكان الشر. فالشر من صنع الإنسان وليس في وجود الملكة فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر؟ لقد خلق الله عند الإنسان استعدادا كي يطلب الكمال ويطلب العلو في الكمال؛ ولكن الإنسان هو الذى حرف هذا الاستعداد فجعله كبرا، فكان شرًّا.

فالإنسان إذن هو الذى - بتنكبه عن تحقيق الحكمة فيما خلق الله - يحيل الخير إلى شر، والصلاح إلى فساد.

والسؤال الآن: ما الحكمة فى جعل هذا الاستعداد الهائل عند الإنسان للخير والشر؟! والجوانب على ذلك:

كى يستعمل الإنسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة: طاقة العقل وطاقة الإرادة، وطاقة الروح، وطاقة الفكر، وطاقة الجسد، فتظهر بذلك كمالات الإنسان فى حالة استعمال كل طاقة فى طريقها الصحيح، وفى إيجاده التوازن بين هذه الطاقات، وبالتالى يعرف فضل الله على الإنسان. أو فى حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله، وآثاره السيئة فيرجع الإنسان إلى الطريق الصحيح. وبهذا يعرف الإنسان الله حق المعرفة: إذ لا يعرف أن الله غفور إلا إذا أخطأ الإنسان واستغفر، ولا يعرف أن الله تواب إلا إذ تاب الإنسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه، ولا تعرف قدرته المطلقة على خلق كل شىء من خير وشر وهدى وضلال، إلا إذا كان هدى وضلال وخير وشر، وبالتالى لا يعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الإنسان على ما هو عليه، ولذلك كانت حكمة الله فى خلق الإنس والجن هى معرفته: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦). إن الإنسان لا يعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه

واستجاب، ولا يعرف أن الله رزاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق. ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ.

٤ - والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيرًا محضًا يخطئون، إذ إن الحكمة من وجود هذا الكون والإنسان وحياته الأولى فيه هي الابتلاء، ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشر، وإنما ينجح الإنسان في الامتحان إذا بذل جهدًا إراديًّا للخلاص من الشر والإقبال على الخير:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (الأنبياء : ٣٥).

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك : ٢)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس : ٧ - ١٠)

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٤١ ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١)

فإذا ما نجح الإنسان في امتحان الحياة الدنيا؛ كان مرشحًا

للحيــة فى عالم الخـير المطلـق فى الآخــرة ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (الأنعام: ١٢٧). ومن سقط كـان أهـلاً لدخـول دار الشـر المطلـق ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ (إبراهيم: ٢٩) جزاءً وفاقًا.

٥ – وإن الإنسان إذا اسـتعمل عقلـه بعلـم، سيجد أن مـن أصغـر ذرات هذا الوجود، إلى كل جـزء مـن أجزائـه، إليـه جميعًـا، ملىء بالحكم، ولن يجد الإنسان شـيئا فيـه قـد خـلا مـن أجمـل الحكـم، والأمثلة التى ضربناها فى ظاهرة الهداية أو الإرادة أو الإبداع، كلـها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة فى كل خلق الله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السـجدة: ٧). ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨). وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلـح شـاهدة علـى ظـاهرة الحكمة فى إطارها الكبير:

(أ) ترى لو كانت عينا الإنسـان فـى أعلـى رأسـه أو فـى أسـفل ذقنـه أو فـى مؤخرتـه أو. . .؟ أكـان ذلـك أحكـم؟! أم كونـهما فـى مكانهما الحالى؟ ترى هل هناك جزء من الإنسان كان خليقًا أن يكون أحكم فى غير محله؟ إن إنسانًا يحترم عقله لا يمكن أن يقول: نعم.

وكأبسـط مثـال يضـرب فـى تبيـان مواطـن الحكمـة فــى أجــزاء الإنسـان: يـد الإنسـان، إنـه مـن الصعـب جـدًّا – إن لم يكــن مــن

المستحيل، أن تبتكر آلـة تضارع اليـد البشـرية مـن حيـث البسـاطة والقدرة وسرعة التكيف، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثـم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هـي التـي تصحـح وضعـه تلقائيا، وحينمـا تقلـب صفحاتـه تضـع أصـابع يـدك تحـت الورقـة وتضغط عليها بالدرجة التـي تقلبهـا بـها، ثـم يـزول الضغـط بقلـب الورقة - واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل الآلـة، ويـأكل بـها الإنسان، ويفتح بها النافذة، ويحمل بها ما يريد، ويلمس بها، وقـد يستعملها فـي تحسـس الجمـال لنقـل إحساساته إلى القلـب، حتـى الأظافر فيه؛ تحمى الأطـراف لأنـها أكـثر تعرضًـا للإصابـة، وبـدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلدك أو تلتقط الأشياء الدقيقة، وأخـيرًا فإن الأظافر هي الميزان الصحي للإنسـان، إن كـل مـا فعلـه الإنسـان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إبهام يده، ولو كانت غـير متحركـة كإبهام القرد مثلاً؛ فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير الكثير مما يفعلـه الآن.

(ب) شفة الجمل العليا مشقوقة كـي تسـاعده علـى أكـل نباتـات الصحراء الشوكية، وخفافه تناسب الرمل فلا تغـوص فيـه؛ بخـلاف ما لو كان له ظلف أو حافر، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمي عينيـه من ذرات الرمل، وسـنامه يكـنز غـذاءه فيـه لأمـد طويـل فـي غيبـة الطعام.

(جـ) النتح فى النبات عبارة عن تبخر الماء من النبات عن طريق الأوراق، الأمر الذى يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور، وتتم عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة، وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات بحسب بيئته؛ لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور فى نباتات الحقل، مما يقلل النتح فى الأولى عن الثانية. أليس هذا حكمة إلهية.

(د) إن الطير أخف من أى حيوان فى حجمه، وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوفة؛ لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادرًا على الطيران.

(هـ) فى القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى «البانجو» تضع الأنثى بيضها فى أشهر الشتاء المظلمة - حيث تتلبد الثلوج فى الأرض والسماء - فى جيب جلدى فى الطرف الأعلى من رجلها، ويبقى الصغار فى ذلك الجيب إلى أن يَقْوَوْا ويشتد مراسهم.

هذه بعض الأمثلة التى تدل على حكمة الخالق عز وجل فى خلق الكون وهى دعوة إلى التأمل فى خلق الله الحكيم الذى خلق كل شىء فأحسن تقديره وصدق الله العظيم:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: ٤٩).

خاتمـة

إن دراسة الكون الفسيح ومخلوقاته المتعددة تدعونا أن نعـرف الله حق المعرفة وننزهه حق التنزيـه ونعبـده حـق العبادة ومن قرأ هـذا الكتاب متحررًا من نفسه المادية وسابحًا بروحه الشفافة فـى رحـاب العالم الفسيح سيرى حقًا عجبًا، لا يمكن أن يكون؛ لـولا أن الله عـز وجل هو الـذى أوحـى، ويسر، وأراد مـا أراد لهـذا الرسول وبـهذا الدين، حقًا إذا ما تحرر الإنسان من نفســه المظلمـة، فسيرى عظمـة الخالق ممثلة فى جمال مخلوقاته وبدائع صنعـــه، مـن أصغـر ذرة إلى أعظم جرم ومن أدق زهرة إلى أضخم شجرة ومن أضيق جـدول رقـراق إلى المحيط الهادر.

ومـا أن يصل الإنسـان إلى كـل هـذا العلـم حتـى يـدرك الحقيقـة العظمى ألا وهـى وجـود الله سـبحانه وتعالى وصـدق الله العظيم:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣).

وبهذا ترى أن الأدلة على وجـود الله كظواهـر العنايـة والهدايـة والإبـداع والإرادة والحكمـة الإلهيـة هـى الطريـق العلمـى لمعرفـة الله ووجوده، ولهذا دعانا الله لهذا الطريق وجعل فى فطرتنا إدراك هــذا المعنى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـــذَ رَبُّــكَ مِـــنۢ بَنِـــىٓ ءَادَمَ

مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢) ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

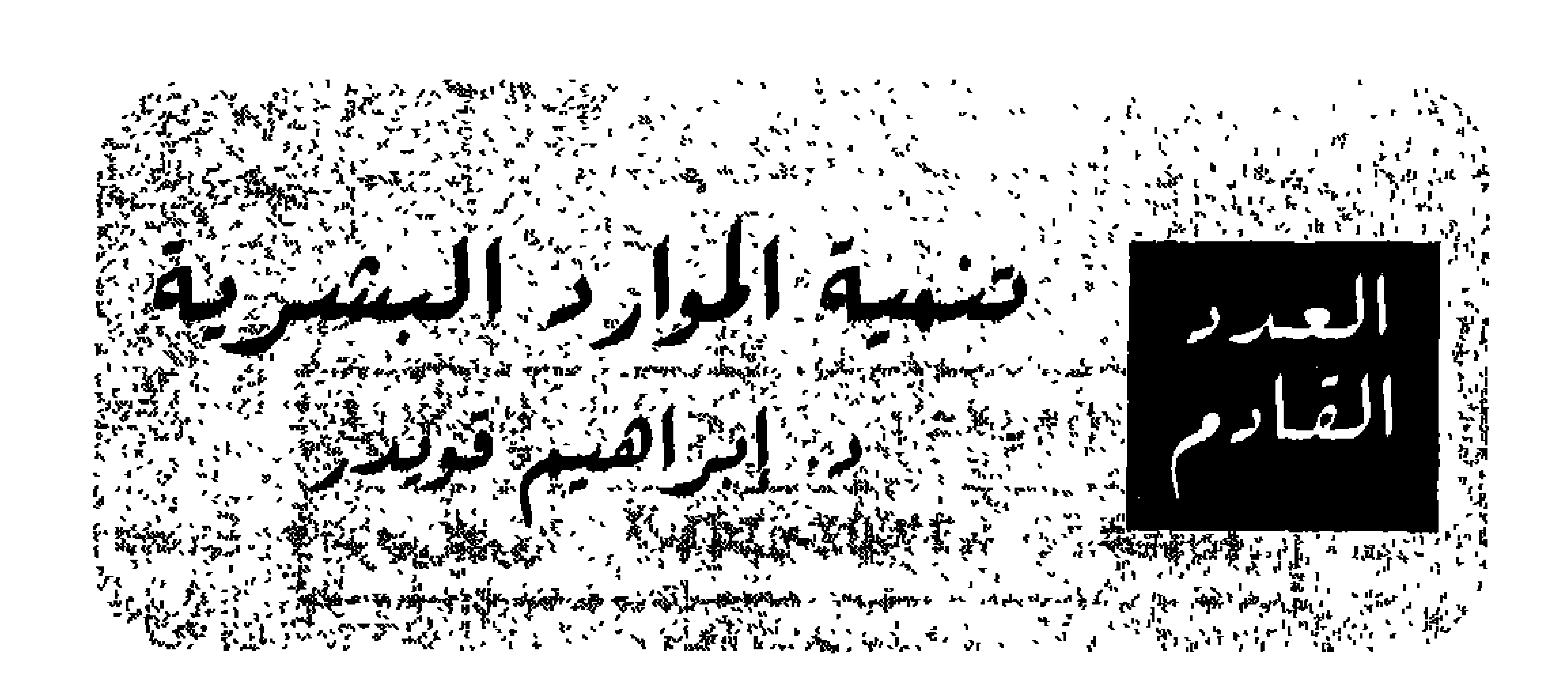
والشهادة هنا شهادة الخواص والعوام، أما شهادة الخواص أولى العلم من الناس فقد ذكرها الله فى قوله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨).

والاختلاف بين المعرفة عند الخواص والمعرفة عند غيرهم أن الأولى أكثر تفصيلاً تشمل ما يدرك بالحواس ويدعمه البرهان. ومن الناس من يقول إنه لا حاجة أصلاً للتفكير فى وجود الله لأنها مسألة بديهية محسومة، ويقول الصوفيون إن المعرفة بالله لا يمكن أن تكون عقلية لأن العقل للمحسوسات والله تعالى من الغيبات وأن معرفة الله لن تتيسر إلا بأن يلقيها الله نفسه فى نفس العابد الصوفى إذا صفى عقله ونفسه وتجرد من عوارض الدنيا.. ولكننا هنا نؤمن أن الطريقة المثلى لمعرفة الله هى طريقة النظر العقلى التى شرحنا أدلتها اختصارًا وتفصيلاً وهى محور إسلامية المعرفة أو التوجيه الإسلامى للعلوم(*).

(*) موضوع كتاب للمؤلف تحت النشر بدار المعارف.

المحتويات



إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

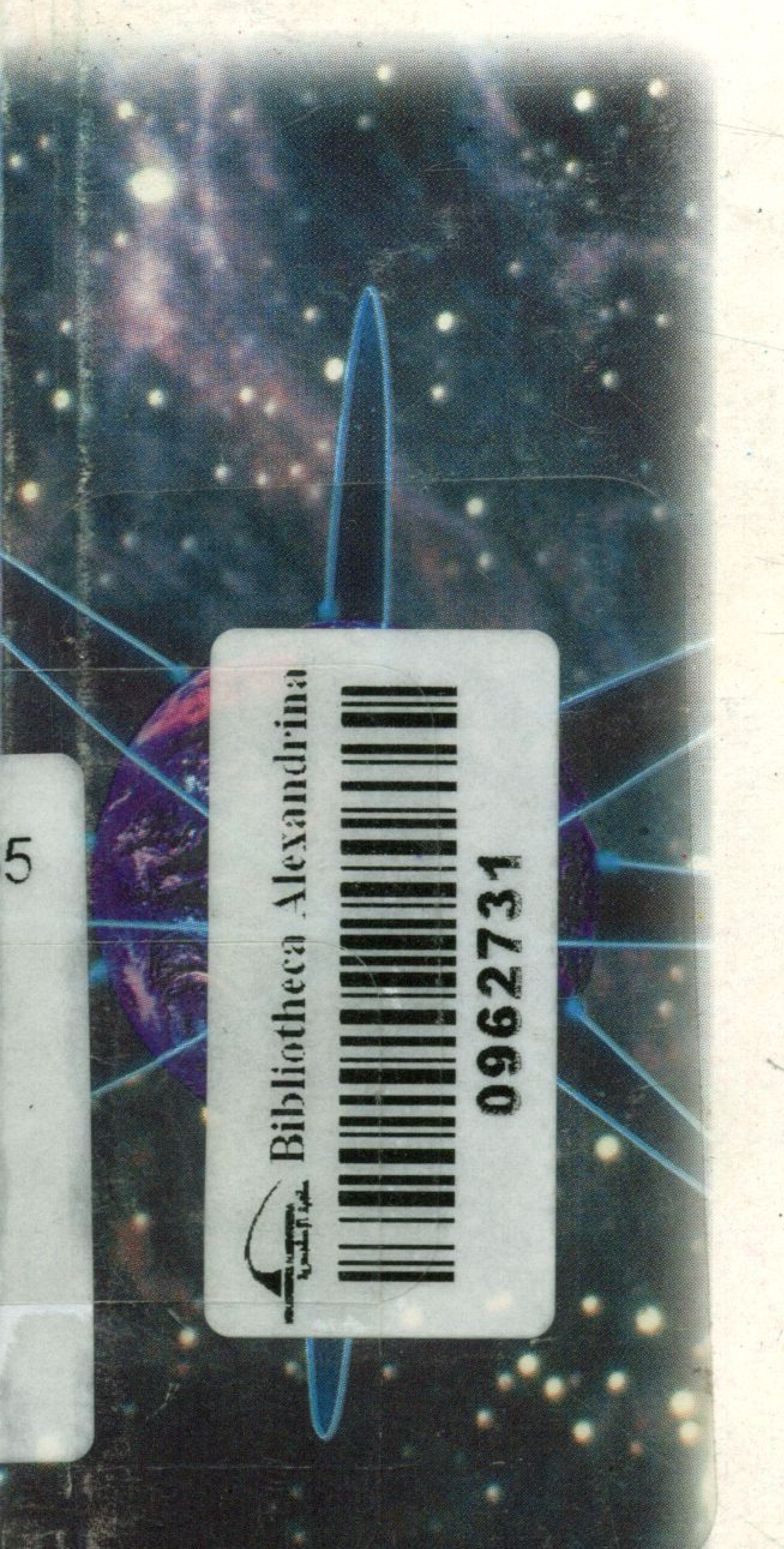
تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٥١٦	
الترقيم الدولى	977-02-6244-7	ISBN

١/٢٠٠١/٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



أثبت العلم الحديث وحدانية النظام فى الكون.. وذلك من خلال التعرف على الكون ومن خلال التشابه والتماثل فى الكائنات الحية.. وقد أثبتت الحقائق العلمية أن فطرة الكون - على اختلاف مظاهرها- إنما هى فطرة واحدة متماسكة ومتكاملة.

فإذا كان العلم يصاحبه الآن فى المجتمعات الغربية نظرة مادية بحتة وغرور.. فإننا نحن - المسلمين - نعرف أن العلم هو الطريق إلى الله



٤٠٧٢٩٨/٠١

